الواجبات والحقوق

تأليف : ماتزيني

من مأثور القول ان الانسان اذا طلب الأفكار الجديدة فعليه بقراءة الكتب القديمة ، وانه اذا التمس الأفكار القديمة فعليه بقراءة الكتب الحديثة ، وليس أدل على صدق هذا القول المأثور من كتاب « واجبات الانسان » الذى كتبه الزعيم الوطنى الايطالى جوزيبى ماتزينى منذ مائة سنة ونيف وصدره بنداء الى العمال الايطاليين يقول فى مطلعه(١) أريد أن أتحدث اليكم عن واجباتكم بما يمليه على قلبى — عن أقدس الأشياء التى نعرفها ، عن الله ... الانسانية ... الوطن ... الأسرة ، أعيرونى أسماعكم بحب واخلاص ، كما أحدثكم وأنا أحبكم وأخلص لكم القول٠ان ما أسوقه اليكم من حديث أقتنعت به بعد تفكير استغرق سنين طويلة قضيتها فى مرارة الألم والتبصر والبحث ، اننى أحاول وسأظل احاول تأدية الواجبات التى سأذكرها لكم ، سأحاول ذلك مادمت حيا وبكل ما تسمح به قواى ، ومن الممكن أن أخطىء ، ولكنه لن يكون خطأ القلب ، وقد أنخدع ولكنى لن أخدعكم ، فاستمعوا الى كما يستمع الأخ لأخيه ، ثم احكموا على أقوالى فيما بينكم وبين أنفسكم بكامل حرياتكم ، فكروا فيما أقول وهل هو الحقيقة ، وتخلوا عنى اذا بدا لكم فيه وجه الخطأ ، ولكن سيروا معى ، واعملوا بتعاليمى اذا ما وجدتم أننى رسول من رسل الحق ٠ ان الخطأ كارثة يبكيها الانسان ويرثى لها ، ولكن معرفة الحقيقة وعدم التوفيق بينها وبين العمل انما هو جريمة تحرمها القوانين والشرائع الوضعية » ٠

وقد بين ماتزينى فى هذا الكتاب القيم واجبات الانسان نحو الله والقانون وواجباته نحو الانسانية والوطن والأسرة ، وواجباته نحو نفسه ونحو الحرية والتربية ببلاغته المعهودة ومنطقه الواضح المتماسك وحماسته المشبوبة التى لم تطفىء وقدتها ما تعرض له من الهزائم وخيبة الأمل وما انتابه من الشكوك المؤلمة والأزمات النفسية الحادة ، ومس فيه مسا رقيقا علاقة الواجبات بالحقوق وان علينا ان نعرف الواجبات التى تفرضها علينا انسانيتنا قبل المطالبة بالحقوق ، وأشار الى المثل العليا الاخلاقية والسياسة التى كانت تلهم رسالته السياسية الثورية ، وقد حذر فيه العمال من الانغماس فى النزعة المادية والأخذ بالمبادىء المكيافلية وفرط الاهتمام بطيبات الدنيا والاسراف فى طلب المنافع والفوائد ، ومع تأكيده لأهمية المسائل الاقتصادية أوصى العمال بعدم جعلها مسيطرة على القيم العليا للحياة ، وانتقد الفلسفة النفعية لأنها تتجاهل أن الانسان لايعيش بالخبز وحده ٠

ولكن لماذا رأى ماتزينى أن يتحدث الى العمال عن واجباتهم قبل أن يتحدث اليهم عن حقوقهم؟ انه يقول لهم(١) فى المجتمع الذى يضطهدكم فيه الجميع برغبتهم أو بغير رغبتهم والذى يمتنع عليكم فيه ممارسة الحقوق الخاصة بالانسان ، والذى فيه البؤس نصيبكم ، وما يسمى السعادة نصيب غيركم من طبقات الناس ، لماذا أحدثكم فى مثل هذا المجتمع عن التضحية بالنفس بدلا من أن أحدثكم عن الغلبة والانتصار ، وأحدثكم عن الفضيلة والاصلاح الأخلاقى والتربية بدلا من أن أحدثكم عن العيش اللين والرغد المادى ؟ هذه مسألة يجب على أن أجيب عنها لأوضح الفرق

(١) ص ١١ من كتاب واجبات الانسان ترجمة طه فوزى وسامى محفوظ ٠

(١) نقلت هذا الجزء ء الترجمة لكتاب واجبات الانسان ، ولم أجده فى ترجمة الأديبين طه فوزى وسامى محفوظ المنقولة عن الايطالية مباشرة ٠

ترجمة : طه فوزى وسامى محفوظ
مراجعة : حسن محمود

الناشر : دار الكرنك
بالاشتراك مع الألف كتاب
١٧٢ صفحة قطع كبير

بين مدرستنا وغيرها من المدارس التى يبشر بها فى أوروبا ، ولأنها – علاوة على ذلك – مسألة سرعان ما تظهر فى تفكير عقل العامل الشقى الغاضب » .

ويستطرد قائلا بلسان حال العمال(١) نحن فقراء مستعبدون متعوسون ، تحدثنا عن أحوال مادية أحسن من أحوالنا وعن الحرية والسعادة ، وقل لنا هل قضى علينا بالشقاء الأبدى ، أو هل نحظى بالسعادة نحن كذلك ؟ بشر بالواجب لسادتنا وللطبقات الأعلى منا التى تعاملنا كأننا آلات وتحتكر النعم والخيرات التى هى من حق الجميع ، حدثنا عن الحقوق ، وحدثنا عن طريقة الدفاع عنها وحدثنا عن قوتنا ، وانظر حتى يكون لنا كياننا المعترف به ، وحدثنا بعد ذلك عن الواجبات والتضحية » .

ويتبع ذلك ماتزينى بقوله(٢) هذا ما يقوله الكثيرون من عمالنا ، وهم يتبعون أساتذة وجماعات تستجيب لرغباتهم، وهم ينسون شيئا واحدا ليس غير ، وهذا الشىء هو ان هذه النظرية التى يثيرونها قد بشر بها ودعى لها خلال خمسين السنة الأخيرة ولم يسفر ذلك عن أقل تحسين فى أحوال العمال المادية » .

ويستطرد ماتزينى فى الحديث ويوضح ان الثورة الفرنسية قامت على المطالبة بالحرية وحقوق الانسان ، وان الثورات التى تلتها أيدت اعلان حقوق الانسان وآكدتها واستكملتها ، فعرف كل فرد حقوقه وأصر عليها واستمسك بها ، وكانت هذه الثورات تطالب بالحرية لأن الحرية هى الوسيلة الى الحياة الطيبة والعيشة السعيدة الراضية ، وكانت كل المذاهب الثورية تبشر بأن الانسان قد ولد للسعادة وأن من حقه أن يعمل على نيل السعادة ويتوسل الى ذلك بكل وسيلة ممكنة ، وأنه ليس من حق أى انسان أن يعترض سبيله ، وأن من حقه أن يزيل كل العقبات التى تقوم فى طريقه ، وقد استطاع الانسان أن يقهر العقبات ويظفر بالحرية ، وقد ظلت الحرية سنوات عدة فى مواطن جمة ومازال فى بعض تلك المواطن، ولكن هل تحسنت أحوال الناس ؟ وهل ظفر الملايين من الكادحين بما كانوا يؤملون من العيش اللين والنعيم الموعود ؟ كلا بل ازدادت أحوالهم سوءا فارتفعت أسعار الحاجيات وهبطت أجور العمال وتكاثرت الأزمات وتوالت الهجرات ، فلماذا لم تحسن نظرية حقوق الانسان الاحوال ولم توزع الانتاج توزيعا عادلا لامتساويا بدلا من أن يظل فى أيدى القلة لا فى أيدى الكثرة الكاثرة ؟ ولماذا لم يؤد تقدم الصناعة والتجارة الى تحسين أحوال الكثرة وأنما أدى الى رخاء القلة وترفها ؟

الجواب عند ماتزينى واضح لمن أراد أن يبصر ويتدبر ، فالناس كما تكونهم التربية ، وهم يعملون حسب المبادىء التى يتلقونها ، فقد قامت الثورة الفرنسية والثورات التى تلتها فى رأى ماتزينى على المطالبة بحقوق الانسان وظفرت بحرية الفرد ، ولكن ماقيمة هذه الحرية لمن لايستطيع ممارستها ؟ وماذا تجدى حرية التعليم لمن لايجد متسعا من وقته للتعلم ؟ وماذا تنفع حرية التجارة لمن لا يملك شيئا ليتجر به ؟

وفى شتى الأمم التى أعلنت فيها حقوق الانسان كان المجتمع مكونا من أفراد قلائل يملكون الارض ويحوزون رؤوس الأموال وأكثرية ساحقة لا تملك شيئا فهى مضطرة ومرغمة على أن تخدم تلك الفئة القليلة بالشروط التى تمليها عليها هذه الفئة المسيطرة لكى تعيش ، وأفراد هذه الكثرة الساحقة يقضون حياتهم فى العمل الممل الرتيب ، فما قيمة الحرية لهؤلاء الذين يجاهدون ويكدحون فى سبيل الحصول على لقمة الخبز لسد نهمة الجوع ؟

كان لابد من تقليل ساعات العمل وتحسين

(١) هذا الجزء نقلته عن الترجمة الانجليزية .
(٢) هذا الجزء نقلته عن الترجمة الانجليزية .

أحوال هؤلاء العمال لتصبح الحريه لها قيمة .

ولكن لماذا يقوم الأفراد القلائل أصحاب الثروات الطائلة والجاه العريض بذلك ؟ أليس العيش الناعم هو أسمى مطالب الحياة ؟ اليست النعم المادية مفضلة على كل شيء ؟ فلماذا يقللون من أسباب استمتاعهم من أجل الفقراء والمحتاجين؟ ليحاول كل انسان أن يعمل لنفسه فالمجتمع قد ضمن الحرية لأفراده ، تلك الحرية اللازمة للطبيعة البشرية ، فاذا كان هناك من عاقته ظروف حياته عن الانتفاع بهذه الحرية الممنوحة له فليرض بما قسم له ولا يلومن غيره من الناس .

وأصبح موقف الأغنياء الميسورين ازاء الفقراء المعسورين هو الموقف الذى يقفــه كل فرد فى المجتمع من غيره من الأفراد ، فكل انسان يسعى لنيل حقوقه ويعمل على تحسين أحواله دون أن يفكر فى غيره ، وحينما تتصــادم الحقوق تقع المعركة ، وكأنها معركة لاتراق فيها دماء لأنهـا معركة ختل ودهاء ، وهى معركــة أقل رجولة ولكنها ليست أقل فتكا وتدميرا ، ينتصر فيهـا الاقوياء بعتادهم المهيأ ويسحقون الضعفاء ، وقد دربت هذه الحرب النـــاس على الأثرة والشره المادى ، وقضت حرية الاعتقاد على عقيدة الجماعة كما أوجدت حرية التعليم الفوضى الاخلاقيه وأصبح الناس لا رابطة تربط بعضــهم بالبعض الآخر ولا جامعة تجمعهم ولا هدف يؤلف بين قلوبهم ويضم شملهم الشتيت ، ومادام كل انســان ينشد المتعة ويجرى وراء مصلحته الخاصة فهو لا يبــالى بغيره من الناس ولا يتورع عن وطئهم بالاقدام فى سبيل الوصول الى أغراضه ، فالناس اخوان فى الظاهر وأعداء فى الواقع ، وهذا فى رأى ماتزينى سببه التعلق بفكرة «حقوق الانسان» واهدار فكرة معرفة الواجبات المفروضة عليه .

ويقول ماتزينى ان الحقوق موجودة من غير شك ، ولكن حينما يصطدم حق بحق فكيف توفق بين الاثنين دون الرجوع الى شيء أســمى من الحقوق كلها ؟ وحينما يصــطدم حق فرد من الأفراد أو حقوق أفراد كثيرين بحقوق الوطن فالى أى محــكمة تحتكم ؟ واذا كان حق الظفر بالعيش الراغد يخص كل انسان فمن الذى يفض الخلاف بين الصانع وصاحب المصنع ؟ واذا كان حق الوجود هو الحق الأول لكل انســـان فمن الذى يطالب بالتضحية بهــذا الحق من أجل الناس ؟ وهل نطالب به باسم الوطن أو باسم المجتمع أو باسم اخواننا البشر ؟ وماهو الوطن فى رأى أصحاب فكرة حق الانسان ؟ انه المكان الذى نضمن فيه حقوقنا الفردية ، وليس المجتمع بموجب ذلك سوى مجموع أفراد قد اتفقوا على التساند لتحصــيل الحقوق الفردية ، فكيف نطلب الى المجتمع بعد ذلك التضحية بهــذه الحقوق ؟ وبعد ان ظللنا نتحدث الســنوات الطويلة عن المصالح المادية كيف نطلب الى الافراد الاعراض عنها والزهد فيها ؟

والثورات التى تلت الثورة الفرنسية كانت كلها ترمى الى تأكيد الحقوق لا الى الاعتقــــاد بالواجبات ، ولقد جاهد الناس فيها باسم المطالبة بتحسين الأحوال ورفع مستوى الحياة وحرية التفكير ونيل المناصب السامية وتمكين الاكفاء من الوصول اليها ، ولكن بعد أن ظفر النـــاس بالحقوق المطلوبة وتيسرت لهم السبل الى المناصب وأخذوا حظهم من العيش الرافه وتقــلبوا فى أعطاف النعمة بعد الضيق والحرمان نسى الظافرون منهم أمر الشعب ولم يشغلوا أنفسهم بالتفكير فيه ، وهم ليسوا خونة ، وانمــا النظرية التى تبعوها هى الخائنة الغادرة !

والذى يؤمن بنظرية الحقوق وحدها كيف يعمل للغاية المشتركة والهدف العــام ؟ وكيف يحمل نفسه على انماء الفكرة الاجتماعية ؟ واذا استمسك انسان بنظرية الحقوق وأبى مناصرة اخوانه البشر فهل من حق الأغلبية ارغامه على خدمتها ورعاية مصالحها ؟ وبأى حق تعاقبه ؟ وكيف تثبت للفرد ان عليه اخضاع ارادته لارادة اخوانه العامة سواء أكانوا اخوانــه فى الوطن أو اخوانه فى الانسانية ؟ لاسبيل الى ذلك الا عن طريق السجن أو انزال العقوبة ، ولكن هذا حرب ونحن نريد السلم لا الطغيان ونحن نريد التربية والتهذيب .

ونظرية الحقوق تمكننا من ان ننهض ونكتسح العقبات ولكنها لا تمكننا من توحيد العنــــاصر وتقوية الروابط ، والاقتصار على طلب المعيشة

اللينة ينشىء رجالا أشرين يعبدون المادة ، والنظرية الاسمى من ذلك التى ترشد الناس الى سبيل اقوم وتعلمهم الاستمرار فى التضحية وتقوى أواصر القربى بين البشر هى نظرية الواجب ، ويقتضى الواجب ألا يعيش الانسان لنفسه وحدها وانما يعيش كذلك للغير ، وليس هدف الحياة ان يوفر كل فرد السعادة لنفسه فحسب وانما هدفها هو ان يعمل على توفير السعادة لاخوانه البشر ، فيحارب الباطل ويقر الحق ويدفع الظلم من أجلهم ، وليس معنى ذلك ان يهدر حقوقه وانما معنى ذلك ان الحقوق لا توجد الا نتيجة لواجبات تقوم بها ، وان علينا ان نبدأ بالواجبات لنصل الى الحقوق ! وليس معنى ذلك الزهد فى المطالب المادية ، وانما معناه اتخاذها وسيلة لاغاية فماتزينى اذن يدعو الى معرفة الواجبات قبل المطالبة بالحقوق .

وقد تأثر ماتزينى فى آرائه الاجتماعية بالمفكرين الاشتراكيين الفرنسيين وبخاصة مدرسة سانت سيمون ، ولكن الحوادث اتجهت اتجاها آخر ، وفى الدولية الاولى سادت آراء ماركس وآراء باكونين ، ولم يكن ماتزينى الرجل الذى يغتنم الفرصة ويعدل آراءه مجاراة للظروف ولذلك فقد فى المرحلة الأخيرة من حياته الكثير من أنصاره ، وقد لقى ماركس وباكونين فى ابان انعقاد الدولية الأولى ، ولكن سرعان ما ظهر اختلاف وجهات النظر بينه وبين اتجاهات الزعيمين الشهيرين ، ولم يسترح ماتزينى لفكرة حرب الطبقات التى نادى بها ماركس ، وظل حريصا على رسالته القومية الدينية ، وكان ماتزينى يفضل النظام الاشتراكى الذى تتولى فيه الدولة شؤون الصناعات الاساسية وتترك سائر وسائل الانتاج فى أيدى شركات تملك رأس المال والارض وتضمن لأعضائها أجورا تكفى لسد حاجاتهم ويوزع فائض رأس المال على حسب نوع الخدمة التى تؤدى ، وكان أهم ما يستأثر بجهد ماتزينى هو توطيد النظام الجمهورى على أساس الوحدة القومية ، وقد أخذ عليه بحق أنه لم يقرن الثورة التحررية بالثورة على النظام الاقطاعى الذى كان يسود ايطاليا فى أثناء حياته، وتمتاز نزعة ماتزينى القومية بأنها نزعة قومية انسانية تنشد السلام والاخاء والحرية ، فهى ليست نزعة عدوانية مثل بعض النزعات القومية عند غيره من دعاة القومية ، وقد كان ماتزينى مثاليا فى نبل حياته واستقامة تفكيره ، وكان مرهوب السطوة من الطغاة والمستبدين فى عصره ، قال عنه الوزير الرجعى الخطير مترنخ « طوع يدى ورهن اشارتى جيوش متحدة حاربت بشجاعة برغم كونها مكونه من شعوب مختلفة، وقد استطعت أن أقرب الأسباب بينى وبين الملوك والاباطرة والسلاطين ، ولم يستطع شى، ولا انسان ان يقيم فى طريقى صعوبات أشد من الصعوبات التى خلقها لى هذا الشيطان الايطالى النحيف الهزيل الشاحب الوجه الفقير والذى أوتى بلاغة العاصفة المدوية وقدرة اللص وعدم يأس المحب الولهان وباختصار أقصد هذا الماتزينى » وهى من غير شك شهادة بالفضل وعظم المكانة من كبير الرجعيين فى عصره لرائد من أعظم رواد الاستنارة والتحرير والاصلاح الذين عرفهم العالم ، ولكل عصر مشكلاته الخاصة التى يقدم لها مفكروه الحلول المختلفة ، وقد تختلف مشكلات عصرنا عن مشكلات عصر ماتزينى فى الشكل أو فى الجوهر ، ومهما يكن من الامر فان الحلول التى يقدمها رجال من طراز ماتزينى لمشكلات عصورهم جديرة بأن ندرسها ونفيد منها ، وخليقة بأن تلقى ضوءا على المشكلات التى يواجهها عصرنا ومجتمعنا ، ومن حق الاديبين اللذين قاما بنقل هذا الأثر النفيس من اللغة الايطالية الى اللغة العربية الشكر والتقدير لاختيارهما الحسن ومابذلا من جهد .

علي أدهم

الفتوحات العربيّة الكبرى

تأليف : جون باجوت جلوب

تعريب وتعليق : خيري حماد



٥٧٠ صفحة – من القطع الكبير ث ٦٥ قرشا

مؤلف هذا الكتاب التاريخي الكبير ليس جديدا على العرب ، فقد عاش بينهم قرابة ثلاثين عاما ، يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون. وخالطهم في معيشتهم ، ولبس ثيابهم العربية ، ونام نومهم في البادية حينا ، وفي الحاضرة حينا • وتعلم لغتهم ولهجاتهم فأجادها ، وشارك في القيادة العسكرية لبعض جيوش العرب ، ولكنه كان – على الرغم من صداقته الظاهرة للعرب – انجليزي الفكرة استعماري النزعة ، غربي النظرة الى العرب والى كل ماهو عربي ، سواء أكان في القديم أم الحديث •

ولم تنقطع صلة الرجل بالعرب منذ أرغم على ترك بقعة من أرض العرب عاش فيها ذلك الزمان كله ، فترك العصر الحديث ومشكلاته وتياراته القومية التي أجترفت أمامها كالسيل كل مكابر ، وراح يتلفت وراءه الى تاريخ العرب في القديم ، مدفوعا بما كان للعرب من أمجاد في التاريخ ، ومتأثرا قول هيرودوت أبي التاريخ: « على الزمن ألا يمحو الماضي من تاريخ الانسانية، وعلينا ألا ننكر على الأعمال العظيمة الرائعة حقها في الشهرة » •

على أن انبهار الرجل بتاريخ العرب القديم وبأمجادهم العظيمة الماضية لم يغلب على الروح الاستعمارية فيه ، ولم ينزع مافي صدره من غل للعرب المحدثين ، لأنهم كشفوا خبيئته ، وعرفوا حقيقته ، فلما راح يؤرخ للفتوحات العربية الكبرى ، ويؤرخ للتاريخ العربي الاسلامي الذي أدار محمد عليه السلام قيادته ، وحدد وجهته، ويؤرخ لغزوات محمد ، وتمكينات أبي بكر ، وفتوح عمر ، وأسطول معاويه ... لما راح يفعل ذلك في هذا المجلد الضخم المتلاطم الأمواج ، غلبته نزعته الاستعمارية ، وطبيعته الأجنبية ، فراح يخلط بين غث وسمين ، ويمزج في الأخبار والروايات بين صحيح وعليل ، وقد يميل الى الواهن من الآراء والمتهافت من الأفكار اذا كان في ذلك ارضاء لنزعته ، واشباع لشهوته ... وقد يفر من اجماع التاريخ ، الى الرأي المفرد أو الى خبر الواحد اذا كان في ذلك نقص من قدر العرب أو تهوين لشأنهم أو غمز في كيانهم•

والحق أن الرجل – لكي يخرج هذا العمل التاريخي الضخم – رجع الى كثرة من المراجع والمصادر العربية وغير العربية ، وقرأ كثيرا حول السيرة والرسول والخلفاء الراشدين والفتوح ، وأفاد من كل ذلك في تكوين الهيكل الضخم لبحثه الواسع ، حتى جاء كتابه هذا موسوعة جامعة للتاريخ العربي الاسلامي حتى بداية الدولة الأموية • وعلى الرغم مما أفاده جلوب من المؤرخين العرب ومن تواريخهم ، فانه قد حمل في المقدمة عليهم واتهمهم بسوء التقدير ، وانعدام الدقة ، وقلة الاهتمام بالحقائق والارقام والعمليات العسكرية ، وفساد الفهم للمعارك والحملات الحربية التي يتحدثون عنها، وعدم التثبت من الأحداث ، وعدم الموازنة والمقابلة

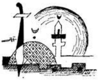
الواعية بين الروايات المختلفة بل الاكتفاء بسردها كلها دون تمحيص لها ٠

ونسى الرجل فى غمار الاتهام أن المؤرخين الاولين من العرب — فى ظروف الأميــة العربية والتدوين والكتابة — كانوا جامعين للأخبار أكثر مما كانوا مؤرخين لها أو معلقين عليها ٠ ونسى الرجل كــــذلك أن تواريخ اليونان والرومان القديمه فيها كثير من هذا الذى عابه على العرب ، فلا تكاد تخرج من حادثة واحدة فيها بوجـــه صحيح ٠ ولكن جلوب الانجليزى عمى وصم عن سوءات التاريخ غير العربى وعن مآخذ المؤرخين غير العرب ، وكأنه جرى فى هذا على المثل العربى القائل : « حبك الشىء يعمى ويصم » ٠

أما معرب هذا الكتاب فهو عربى كريم شارك فى اثراء المكتبة العربية الحديثة بتعريب طائفة من الكتب الأجنبية ٠ من أمثال «الاصلاح الزراعى والانماء فى الشرق الأوسط » لدورين وارينر ، « كيف تفكر أفريقيا » لأبراهام ٠ و « الطريق الى السويس » لارسكين تشايلدرز و « يوميات جوبلز » لهلمت هايبر ، و « السياســـة بين أصــدقائها وأعدائهـــا » لبرنارد كبريك ، و « الرأسمالية والاشـــتراكية والديمقراطية » لجوزيف شومبيز ، وغيرها مما ليس هنا مجـال حصره ٠

ومزية الأستاذ خيرى حمـــــاد بين المعربين والنقلة المحدثين أنه دقيق الترجمة ، كثير التعليق والتنقيب على مايعربه ، حتى لتزدحم صفحـات الكتب التى يترجمها بهذه التعليقات الكثيرة المفيدة المتناثرة هنا وهناك ٠ وبهذا يضيف الى فضــل الترجمة وعنائها فضلا وعناء آخر ...

وما وجدت فيما ترجم أخـيرا من كتب الى اللغة العربية كتابا احتشدت فيه التعليقـــات والتعقيبات كما حدث فى كتـــاب « الفتوحات العربية الكبرى » ، فقد كان المعرب واقفا للمؤلف المؤرخ الانجليزى بالمرصاد ، يرده الى الصواب تارة ، ويصحح له الأوهام تارة ، ويكشــف عن سوء نيته فى معاداة العرب ثالثة ٠ ثم يتعقب مصادره ومراجعه ، حتى اقتضاه ذلك الرجوع الى كثرة كاثرة من مصادر التـــــاريخ العربى الاسلامى ، مع ما نعلمه من شدة العناء فى البحث فيها ، وخلوها من الفهارس المتنوعة المســـعفة ، وما يتطلبه ذلك من جهد ووقت ومعاناة ومداومة على البحث والتنقير ٠



ويخيـــل الى أن المعرب يسىء الظن بالمؤلف الانجليزى حتى قبل أن ينهض بتعريب كتابه ٠ فقـد كان يظن أن الله فتح على جـلوب ببحث فى تاريخ العرب من الزاوية العسكريه ، وتحليل الأحداث هذا التاريخ ووقائعه وتفسيرها على ضوء معلوماته العسكرية وخبرته بالبلاد التى وقعت فيها هذه الأحداث ، أو لعل جلوب ((قد عثر فى بعض الكتب الرومانية أو البيزنطية على أشياء نجهلها ٠ أدرجها فى كتابه ، وربط بينها وبين روايات التاريخ العربى ، ليخرج لنا من كل ذلك بشىء جديد) ٠ وبالطبع لم يجد المعرب فى الكتاب شيئا من هذا ٠ وانما وجد حوادث مستمدة من كتب التاريخ والسير العربية ، كابن هشـــام وتواريخ الطبرى والبلاذرى ومحمـد الخضرى (ولكن أهم مافى الكتاب هى المحاولة البارزة فى كل ناحية من نواحيه للتشويه والتضليل ورسم الصورة الزائفة التى تشـــكك القـــارىء فى الشخصيات العربية العظيمة ، ابتداء من النبى صلى الله عليه وسلم ٠ وانتهاء بصغار القادة) ٠

هذا هو رأى المعرب فى كتاب جلوب اجمالا، ويضاف اليه أن كل مافى الكتاب من جـــدة : (هو الربط بين الأحداث وصوغ قصـــتها على أساس الاتساق الزمنى ، مع بعض الاستنتاجات والآراء الخاصـــــة التى لاتتطلب خبرة جنرال عسكرى ، أو عالم بفنون الحرب وخططها ، وانما يمكن أن يصل اليها كل باحث يتوخى فهم الأحداث وتفسيرها) ٠



ومن هذه الريبة المحيطة بنية المؤلف المتعصب كانت تعليقات المعرب الكثيرة ، وكانت وقفاته العديدة مع جلوب فى كل مايوهم الغرض والهوى والحملة على العرب أو الغمز فيهم • وقد أحسن المعرب بهذه التعليقات آيما احسان : أحسن بها الى قومه العرب ، وأحسن بها الى الحق والحقيقة التاريخية ، وأحسن بها الى العلم الذى يجب أن يتجرد صاحبه من نوازع الهوى والتعصب •

وما أجمل احسان المعرب وهو يصحح خطأ المؤلف المتكرر من أن أبا جهل هو عم النبى عليه السلام ، حتى لقد وضعه فى جدول نسب قريش بجوار حمزة والعباس وأبى طالب وعبد الله وأبى لهب وغيرهم من أبناء عبد المطلب ••• وأوضح المعرب أن أبا جهل هو عمرو بن هشام من بنى عبد الدار لامن بنى هاشم بن عبد مناف • وقد تكرر هذا الخطأ بضع مرات فى بضع صفحات• وصححه المعرب كل مرة ... وقد كان تصحيح المعرب لهذا الخطأ فى شىء من الغيظ ، والحق أنه لما يغيظ أن يخلط مؤرخ بين أبى جهل وأبى لهب ، ثم يزعم لنفسه العلم والدقة والمنهج العلمى، ويحمل فى الوقت نفســـه على مؤرخى العرب ويتهمهم بعدم الدقة وتحرى الصواب •

ومن احسان المعرب تصحيحه (صفحة ٦١) لما زعمه جلوب من اسم زيد بن عمرو بن نفيل العدوى ابن عم السيدة خديجة ، فقد ذكر أنه زيد بن الطفيل • فخلط بين نفيل وطفيل ، وهو وهم كبير ...

ومن احسان المعرب تصحيحه لعدد النفر من الخزرج الذين عرض النبى نفسه عليهم قبيل مؤامرة قريش على مقتله • فقــــد ذكر جلوب (صفحة ٧٢) أنهم سبعة من رجــــال يثرب ، فصححها المعرب بأنهم ستة رجال لاسبعة • كما قالت كتب السيرة • والمعرب على حق ، فقـــــد عدهم ابن هشام بضبط الحروف والعبارة ، وقال « ان عددهم ستة كما ذكر لى » ، ثم أخذ ابن هشام بعد ذلك يذكر أسماءهم واحدا واحداً ، وأسماء آبائهم وأجدادهم وينسبهم الى قـــومهم (سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٨) • فلما جاء المرحوم الأستاذ محمد رضا يعدهم فى كتـــابه النفيس : « محمد – طبعة عيسى الحلبى » زاد عليهم أبا واحد منهم ، على سبيل التداخل فى الأسماء ، فكان بذلك عددهم سبعة مع أنهم ستة• ومن هذا المأتى انزلق جلوب الى هذا الخطأ الذى يؤكد لى أنه اعتمد على كتاب الأستاذ محمد رضا•

والحق أن حسنات المعرب فى هذا الكتاب كثـــيرة ، وخاصـــة فى رده على مزاعم المؤلف ومفترياته ومغامزه التى لاتقف عند حد • ففى صفحة ١١٦ يتهم أتباع النبى بالاغتيال واللجوء الى وسائل الارهاب • ويزعم أن النبى عليه السلام أوفد الى مكة رجلا لاغتيـــال أبى سفيان ولكن الخطة لم تنجح • ويناقشه المعرب فى هـــــذا ويكشف عن حقده الدفين للاسلام واخفائه غدرات المشركين •

وفى صفحة ١٢٦ يجترىء المؤلف الانجليزى فى قحة فيزعم أن محمدا لم يكن فى الحقيقة قائدا عسكريا ذا مواهب عسكرية بالغة ... فيعقب المعرب على ذلك بكلام وجيز دقيق ، ولو شئنا أو شاء المعرب أن يطيل لأشرنا الى كتاب «العبقرية العسكريه فى غزوات الرسول » للضابط محمد فرج ، فهو ثمين منصف فى هذا الموضوع •

وفى صفحة ١٢٩ يثير المؤلف الحقود شكوكا حول الرسل والرسائل التى بعث بها النبى عليه السلام الى الأمراء والملوك • فلا يسكت الأستاذ خيرى حماد على هذه الجراة البـــاطلة ، ويعقب متسائلا عن علة التشكيك فى هذه الرسائل التى أجمعت كتب السيرة والتاريخ الاســلامى على وجودها ونقلت نصوصها • وأسماء الذين حملوها وسفروا بها ، وكيف استقبلها الملوك وردوا عليها. ويقول المعرب بعد تعليق طويل ممتع : (هل يمكن

لمؤرخ يدعي الموضوعية أن ينكرها الا اذا كان يريد المغالطة ويريد التشكيك فى صحة التاريخ الاسلامي ؟) .

وفى صفحة ١٥٠ يكرر المؤلف الحقود تلك النغمة المرذولة والشنشنة التى نعرفها من أخزم... من اتهام النبى بأنه كان مزواجا محبا للنساء... فيرد المعرب على هذه التهمة التى طالما استخدمها أعداء الاسلام للطعن فى نبيه ، وبهذا ينسحب الطعن الى الاسلام نفسه ، وهذا هو هدفهم الذى لايغفلون عنه ، وداؤهم الذى لايبرءون منه ...

وهكذا يمضى المعرب فى احسانه بردوده ودفاعه فى صفحات كثيرة (انظر على سبيل المثال ٢٠٣ - ٢٠٥ - ٢١٠ - ٢٣٤ - ٢٤٩ - ٢٩٢) .

على أن تحمس المعرب للرد على جلوب وتخطئته وتوهين كلامه قد جره بعض الحين الى أن يعارض المؤلف دون أن يكون بين يديه دعامة من دليل ، أو سند من حجة ، حتى لقد يركب فى ذلك مركبا يخالف المنهج العلمى الذى يسير عليه العلماء حين يؤلفون أو حين يناقشون :

● ففى صفحتى ٨٥ ، ٨٦ أشار المؤلف الى حادث تأبير النخل - أى تلقيحه - الذى وقع من النبى عقب هجرته الى المدينة ، فقد لاحظ عليه السلام أن أهل المدينة يؤبرون نخلهم ، فمنعهم من ذلك . ولما لم تثمر النخيل عاد فصرح لهم بالتأبير ، فانهم أعلم بشئون دنياهم . وقد علق الأستاذ خيرى حماد على هذه الحادثة بأنها (لم ترد الا فى كتاب واحد من كتب التاريخ الاسلامى ، فى حين لم تشر اليها كتب السيرة الصحيحة ، مما قد يوحى باختلاقها من قبل بعض الشعوبيين) . وفى هذا التعليق تهجم من الأستاذ المعرب المعلق على العلم وعلى التاريخ وكتب الحديث الصحيحة . فقد وردت هذه الحادثة - التى سماها المعرب قصة - فى صحيح ابن حبان ، وهو من أوثق كتب الحديث ، هكذا : (قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يؤبرون النخل - أو يلقحون - فقال : ماتصنعون ؟ قالوا شيئا كانوا يصنعونه ، فقال : لولم تفعلوا لكان خيرا ، فتركوها فنفضت - أو نقصت - فذكروا ذلك له ، فقال صلى الله عليه وسلم : انما أنا بشر ، اذا حدثتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به ، واذا حدثتكم بشىء من دنياكم فانما أنا بشر) . وهذا الحديث رواه أيضا الامام مسلم (ج ٢ : ٢٢٣) وقد روى هذا الحديث باسناد آخر ، وجاء فيه قوله عليه السلام : أنتم أعلم بشئون دنياكم . رواه الامام أحمد بن حنبل فى المسند (ج ٦ : ١٢٣ طبعة الحلبى) . وفى المسند طبعة دار المعارف بتحقيق المرحوم أحمد محمد شاكر (ج ٢ حديث رقم ١٣٩٥) ، ورواه ابن ماجة فى سننه (ج ٢ : ٤٨)، ولم ينكر أحد من علماء المسلمين هذا الحديث الثابت الصحيح ، بل استند اليه بعضهم فى اثبات سلطان العقل للعلوم الدنيوية التى لا شأن لسلطان الاسلام فيها (انظر كتاب « حرية الفكر فى الاسلام » للأستاذ عبد المتعال الصعيدى - ص ٢٥) ، وقال بعضهم ان الفرق بين شئون الدين والدنيا انما هو فى أمور الصناعات والأمور المادية والتجارب وما اليها ، أما ما يتصل بأمور الناس فى الدنيا ومعاملاتهم فهذا من أمور الدنيا يقينا (انظر صحيح ابن حبان - تعليق المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر - ص ١٥٧) .

● ومن التعليقات التى تهجم فيها المعرب على العلم بدون حق ولاسند ولامعرفة انكاره فى صفحة ٣٣٦ ما قرره الخليفة عمر بن الخطاب من « عدم السماح لغير المسلمين بالعيش فى الجزيرة العربية » ، فقد أنكره المعرب وعلق عليه قائلا: «لا أدرى من أين جاء المؤلف بهذه الرواية ؟» كما أنكر أن عمر استند فى قراره الى حديث للنبى عليه السلام على فراش الموت . والمسألة حقيقة تاريخية ثابتة لاتحتاج الى مثل هذا الانكار من المعرب . فقد ذكر المقريزى فى كتابه « امتاع الاسماع : ٥٤٦ » أن بعض نساء النبى كن يتذاكرن فى مرض وفاته كنيسة رأيتها فى أرض الحبشة وعليها تصاوير ، فأنكر عليه السلام التصاوير والقباب ، وقال : (لايبقين دينان

بأرض العرب) . وفي صحيح البخاري (ج ٦ ص ٩) أن النبي عليه السلام أوصى في مرضه الذي توفي فيه بثلاث وصايا . أولها : (اخرجوا المشركين من جزيرة العرب) . وفي مسند ابن حنبل عن عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع الا مسلما) .

والحديث الذي استند اليه الخليفة عمر في اخراج المشركين من الجزيرة العربية ، والذي لم يقع للأستاذ المعرب ، فجره الى الانكار والاستفهام والافتاء بغير علم — من الاحاديث الصحيحة الثابتة ، وقد جاء في البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والدارمي ومالك وابن حنبل والطيالسي .

● ومن انكارات المعرب التي لم يستند فيها الى علم ما جاء في صفحة ١٤١ خاصا ببيعة النساء يوم فتح مكة وحديث هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان مع النبي عليه السلام وهي مختمرة ، فقد علق عليها المعرب قائلا : (انه لم يستطع العثور على تأييد لهذه الرواية في كتب السيرة) ، والسيد خيري حماد يعلم أن سيرة ابن هشام ليست كل كتب السيرة ولا مصدر أخبارها الوحيد ، ففي كتب التاريخ الوثيقة أخبار لم تأت فيما وصل الينا من كتب السيرة ، ومنها هذا الخبر الذي رواه المقريزي المؤرخ في كتابه « امتاع الأسماع » ، وهو حجة في سيرة الرسول عليه السلام ، وفيه أخبار لم تأت في كتب السيرة . والخبر كما أورده المقريزي طريف (ج ١ ص ٣٩٢) ، وقد نقله الأستاذ المرحوم محمد رضا مؤرخ السيرة المعاصر في عبارات أخر ، ولعله استقاه من مصدر آخر غير الامتاع للمقريزي (انظر « محمد » — لمحمد رضا — ص ٤٣٤ — طبعة عيسى الحلبي) .

● وفي صفحة ٦٠ يذكر جلوب الانجليزي نقلا عن بعض المصادر العربية الاسلامية أن زيد ابن حارثة مولى النبي عليه السلام ينتمي الى قبيلة « أضرة » العربية المسيحيه التي كانت تقيم في جنوبي سورية ، فيعقب الأستاذ المعرب على هذا أن مؤرخي العرب أجمعوا على أن زيدا من بني كلب لا من بني أضرة . وفي هذا الكلام بعض الحق ... وان كان الحق أن المؤرخين والنسابة قد اختلفوا في نسب زيد بن حارثة اختلافا كبيرا ، فهو عند ابن سعد (زيد الحب بن حارثة، بن شراحيل، ابن عبد العزى ، بن امرىء القيس ، بن عامر ، ابن النعمان ، بن عامر ، بن عبدود ، بن عوف ، ابن كنانة ، بن عوف ، بن عذرة ، بن زيد اللات، ابن رفيدة ، بن ثور ، بن كلب ... الى أن يبلغ به يعرب بن قحطان) ، ويزيد بعض المؤرخين كعبا بين شراحيل وعبد العزى (انظر محمد رضا ص ٩٠) . ويقول المعرب انه كان يسمى زيد بن حارثة الكلبي ، ونقول له نحن أيضا ان بعض المؤرخين سماه : زيد بن حارثة الكعبي . فهو تارة كلبي ، وتارة كعبي ...

● وفي صفحة ٤٠ مثال لاصرار المعرب على تخطئة المؤلف حتى ولو كان على صواب . فقد ذكر جلوب أن تيتوس الامبراطور الروماني طرد اليهود من القدس في عام ٧٠ للميلاد ، ولكن المعرب يناقضه قائلا : الصواب عام ٧٩ ميلادية. ولا أدري علام يستند المعرب الى هذا ؟ فكل كتب التاريخ ودوائر المعارف — مابين أجنبية وعربية — تؤرخ هذا الحادث سنة ٧٠ م لا غير (انظر تاريخ العرب للدكتور حتى ج ١ ص ٨١ و NEWS OF THE WORLD صفحة ٤٨ ، وموسوعة NUTTAL مادة TITUS و «معلمة لاروس » وغيرها .

● وفي صفحة ٣٨ يذكر المؤلف الانجليزي أن الجنوب العربي كان من مستعمرات الفرس في القرن السادس الميلادي ، ويصحح المعرب هذا منكرا أن يكون الفرس قد استعمروا الجنوب العربي ، ولكنهم (حاولوا استعمار اليمن وحكمه ، ولكن أيامهم فيه كانت معدودة) . وكلام العرب هنا يحتاج الى شيء من البيان الدقيق ، فان سيف بن ذي يزن لما استعان بملك الفرس لطرد الأحباش من بلاده ، أمده هذا بجيش فارسي بقيادة « وهرز » سنة ٥٧٠ م فهزم الأحباش وطردهم من اليمن ، ولكن الفرس حلوا محل الأحباش ، وكانوا يتدخلون في شئون

اليمن حتى جعلوها ايالة فارسـية خاضـعة لسلطانهم ، وظلت كذلك حتى سنة ٦٢٨ م حين اعتنق « باذان » - عامـل الفرس على اليمن - الاسلام فى عهد النبى عليه السلام • ومن هنا ندرك أن اليمن ظلت أيالة - أو مستعمرة فارسية مدة ثلاثة وخمسين عاما ••

وبعد : فهذه أمور ومسائل أقف فيها موقف المخالف من الأستاذ خيرى حماد ، وهو خلاف نرجو من ورائه الوصول الى الوفاق ، والى الحق الذى نهدف له جميعا ، ونسعى اليه ، ولا أحسبه الا حريصا عليه ، حفيا به ، فان العلماء الحقيقيين لايغضبون حين يوجه النقد اليهم ، ولكنهم - على الأقل - يرحبون لأن الناس يقرءون لهم ، ويهتمون بهم ، ويصبرون على معاناة البحث معهم ، تقديرا منهم لجهدهم ، ومعاونة منهم لهم فى الزام الحجة، ووضوح المحجة •

والله يوفق خطوات مترجمنا العربى الكبير•

محمد عبد الغنى حسن

سطور من كتاب ....

ومن عجائب الأقـدار أن الله نجى موسى بالبحر من فرعـون ، وأغرق فى البحر فرعون على يد موسى ومغزى هذا أن الله يعـد للظالم قذيفة من صنع يده ، وأنه يتخذ للظالم مقبرته التى تواريه مما كان يعـير به فرعون موسى • فكان موسى قذيفة أطاحت بفرعون وعرشـه ، وتعاظم فرعون بالأنهار تجرى من تحته فابتلعته البحار ، وفى هذا أكبر عبرة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا •

••• الى القرآن الكريم

حياة

كتابة التراجم من أهم فنون الكتابة وأنفعها للقارىء ، لأنها تتناول من الحياة ألوانا متعددة، وتطلعه على أنواع من التجارب التى مارسها كل مترجم له ، فتكسبه ثروة وافرة من المعـــارف لاتتاح له فى غير قراءتها ، وتكشف له عن عـدة أمور غامضة، وقد تحل له عدة مشاكل منمشاكل الحياة التى صادفها غيره ، وتنير له سبيل النجاح وطريق الفشل ، ويهتدى بها الى خير المبادىء التى ينبغى أن تكون دستورا لحياة الكرامة والحرية، وحياة الشرف والاستقامه ·

وقد كان المعروف أن أعلام العـــلم والفن والاجتماع لايكتبون عن أنفســـهم ولا يترجمون حياتهم ، وانمـــا يترجم لهم غيرهم ممن عرفوهم أو درسوا آثارهم · ولكننا رأينا فى العصر الحديث طائفة منهم ترجموا لانفسهم تراجم شـــائقة ولاريب أن هذه التراجم التى يكتبها أصحابهـا خير من غيرها للتاريخ وللمؤرخين ، بل للعـــلم والفن ، لأنها تعطينا الخطوط الصادقة لحيـــاة المترجم وأعماله وتجاربه · وهو أصدق راو عن نفسه ، وأصح ثقة فيما يقول عن حيـــاته ، وخصوصا اذا كان دقيقا فى روايته ، صريحـا فيما يعرضه لقرائه ، متوخيا الفـــائدة العلمية والادبية والاجتماعية ·



وهذا ما نراه فى هذا الكتاب الجديد «حياة طبيب» · فقد توخى فيه الدكتور نجيب محفوظ أن يسجل صورا كاملة لحياته وللاحـــداث التى مرت به منذ ولـــد فى الخـــامس من ينـــاير سنة ١٨٨٢ م فى مدينة المنصـــورة الى اليوم · وذلك فى أكثر من خمسة وثلاثين فصـــلا تضمها مائتان وخمس وثمانون صفحة كبيرة · وهى مزيج من الذكريات الشخصية والذكريات العامة والنظرات العلمية والتجارب الطبية التى مارسها أو مرت به فى مدى عمره المبارك ، وكان لهـــا أثرها العظيم وقيمتها التاريخية فى الفن الذى تخصص فيـــه · وهو « طب الولادة وأمراض النساء » ·

ولهذا كان للكتـــــاب قيمته العلمية التى تستحق الدراسة ، ولمؤلفه واجب العناية بحياته الممتازة ، فهو ليس طبيبا فحسب ، ولا عالمـــا فحسب ، بل هو نطاسى نابغ متخصص جـــدير بأن تسجل حياته وتدرس ليستفيد منها شباب الجيل ·

فقد حصل على مؤهلات طبية ، وتقدير علمى دولى ، وجوائز علمية فى مصر والخارج لم يحصل عليها طبيب فى « طب الولادة وأمراض النساء » حتى الآن · وقد ألف ستة مؤلفات نفيسة بالعربية والانجليزية فى هذا الفن منها : « الثقافة الطبية والطب البشرى عند العرب » · و « الموسوعـــة العلمية فى أمراض النساء والولادة » · وهى فى ثلاثة مجلدات تبلغ ١٣٥٠ صفحة وكتب أكثر من خمسين بحثا طبيا فى المجلات الطبية العالمية · وهو أول من أسس « قسم أمراض النســـــاء والولادة » بالقصر العينى ، وأول من أسس أول

طبيب

تأليف : الدكتور نجيب محفوظ

الناشر : دار المعارف
بالاشتراك مع المؤلف
٢٨٥ ص قطع كبير

عيادة للحوامل فى مصر وأول مركز لرعاية الطفل ، ومدرسة الممرضات والمولدات ، وأول متحف للولادة وأمراض النساء على نفقته الخاصة، ثم أهداه للدولة . وقد قام بتأليف « جمعية الولادة وأمراض النساء المصرية » التى تقوم بدور هام فى البحث العلمى والثقافى والخدمات الطبية ــ هذا الى مااشتهر به من نبوغ فى علاج المريضات وانقاذهن من الموت .

ولذلك تبوأت حياة الدكتور نجيب محفوظ مكانتها التاريخية . وقد أحسن كل الاحسان فى كتابتها بنفسه . ورسمها رسما دقيقا يتفق ودقته فى فنه ، وأعطانا نفسه وأعماله شرحا وتحليلا لكل مارآه وشاهده ، بل شرح حياته تشريحا تاريخيا ، فلم يترك شيئا الا وضحه وفسره بأسلوب سلس جميل مع الايجاز والتركيز والأفادة العلمية والاجتماعية .

ومن الغريب أن هذا الطبيب النابغ الذى أنقذ آلاف الأطفال من الموت عند الولادة ، قد ولد هو بحالة أيقن الدكتور ومساعدته اللذان قاما على ولادته أنه فقد الحياة ، فهو يقول فى حادث ولادته :

« بعد تسعة أشهر كاملة قضيتها فى بطن أمى ، فى عالم الظلام ، خرجت الى عالم النور فى اليوم الخامس من شهر يناير سنة ١٨٨٢ م . وكان اليوم يوم الخميس ، ولم استقبل عالم النور بالبكاء والصياح، ولم تكن يداى مقبوضتين، كشأن الطفل ساعة يولد ، بل كنت مسترخيا كل الاسترخاء ، لانبض ولاتنفس وذلك مايسمونه فى الطب : « اسفكسيا بيضاء » . وهى أسوأ درجات الاختناق الشديد . فقد لبثت والدتى فى مخاضها ثلاثة أيام بلياليها وكنت وليدها الثامن . وهى يومئذ فى الخامسة والآربعين . وقد قررت الحكيمة « بهانة » وزوجها « الدكتور منصور » . وهما اللذان لازما والدتى فى مخاضها الطويل ان المولود فقد الحياة ، فوضعت فى صينية بجانب نافذة مفتوحة ، ولم يقطع حبل السرى ، الى ان جاءت خالتى السيدة «هنا»، وأسرت الى الحكيمة أن المولود يتنفس على ضعف فعملت الحكيمة على انعاشى بما تعلم من الوسائل، ولكن تعرضى للهواء البارد أمام شباك مفتوح والشتاء فى ابانة ، كان له فى صحتى أثر سىء عانيت منه شهرين ، بل أكثر .

« وهكذا استقبلت الحياة برضا واستسلام. وبودى حينما يسترد الله وديعته أن أتلقى ذلك بابتسامة وثقة ورجاء .. »

وقد تحدث الدكتور نجيب عن ذكريات الطفولة والتربية المنزلية ، وعن الدراسة ، ووصف لنا مدرسة الطب ، وقصر العينى منذ ستين عاما . وجهاده وهو فى السنة الرابعة النهائية من مدرسة الطب فى مكافحة وباء الكوليرا الذى دهم البلاد المصرية فى سنة ١٩٠٢ م، وكان له الفضل فى اكتشاف البئر الموبوءة فى

قرية « قوشا » بميكروب هذا الوباء ، حتى أمكن القضاء عليه في الصعيد ٠

وحينما وصف مدرسة الطب أثناء دراسته مع زملائه في المدرســـة لم يفته أن يتحدث عن حالتها الاجتماعية الى جانب حالتها العلميـــة ، وما شاهده من مزالق الأخـــلاق بين الطلبـــة والطالبات على الرغم من أنه كان في المدرسة وقتئذ قسمان : قسم للرجال ، وقسم للحريم ٠ وكانت الطالبات وقتئذ يلبسن في المدرســـة البرقع الأبيض المعروف باسم « اليشمك » ٠ ومع ذلك فان التقسيم بينهن وعدم الاختلاط الدائم لم يمنع من وقوع أخطاء خلقية ٠ وقـــد روى الدكتور صورة مما وقع في ذلك الزمان فقال :

« كان عمل الطلبة في المستشفى موزعا بين قسم الرجال وقســـم الحريم ، فمن حقهم في ساعات العمل المعينة أن يدخلوا قسم الحريم لتسجيل المشاهدات فكان ذلك مدرجة للاختلاط بين الطلبة وطالبات مدرســـة التمريض اللائي كن يقمن بعمل الممرضات ، وكانت الطالبات يغطين وجوههن بخمار أبيض (يشمك) ٠ ومما يؤسف له حقا أنهن لم يكن جميعا يؤثرن الحشمة والتزام الحياء ٠ وكان بعض الطلبة يبـــادلون بعضهن المداعبات والمغازلات ٠ وقد سقط في شباكهن نصف الطلبة ٠ وكانت بينهن اثنتان من ذوات الجمـــال والاغراء ، وانتهى الأمر بأن اختص كل طالب بواحدة من هؤلاء الطالبات ٠ وكانوا يظنون أن أمرهم يبقى مكتوما ، ولـــكن سيرتهم افتضحت في داخل المستشـــفى وفي خارجه ٠٠ !!

«واذا كانت قدماي لم تنزلقا في هذا السبيل، فالفضل في ذلك يرجع الى النصائح التي كانت تتعهدني بها أمي في صباي ... »

وهذا الحادث يدلنا على أن الحجاب والتحفظ في الاختلاط ولباس اليشـــمك وارتداء الملابس الطويلة الكاسية لم يمنع ذلك كله من الوقوع في هذه المزالق ٠

وانما المعول في التمسك بالاخلاق الفاضلة في دور التعليم والأماكن الأخرى ، على التربية الاخلاقية التي تعصم من الانزلاق في مثل هذه الأخلاق التي تنافي كرامة العلم والتعليم ، وتسيء الى الآداب العامة ٠

وقد روى الدكتور نجيب عدة أحداث وقعت له في علاجه للمرضى ، وعدة أخطار تعرض لها أثناء عمله أو في حياته الاجتماعية ، أو في أثناء سفره في الخارج ٠ وما شاهده من الأحـــداث الخارجة التي يعجز العقل عن تفسيرها ٠٠ قال:

« صادفني كثير من الأحداث الخـــارقة ، تخـــالف المألوف ، وتخرج على السنن الطبيعية المعهودة ٠ وقد عجزت عن ان أجد لها تعليـــلا يقبله العقل ولم يهتد العلماء بعد الى ما يكشف لنا الغامض من أسرار المخ ، ومدى امكانياته...»

ثم روى عدة حوادث من هذا القبيل ٠ نذكر منها هذه الحادثة :

« حدث أثناء الحرب العالمية الأولى أن سيدة فرنسية ٠ وهي زوجة أحد رجال السلك السياسي في سفارة فرنسا بمصر ، أصابها ما يستدعي اجراء جراحة كبرى ، فأدخلتها المستشفى ٠ ولما شرعنا في تخـــديرها بمزيج من « الكلوروفورم والأثير » هاجت وجعلت تغني باللغة العربية في لهجة تونسية قائلة :

« يابنت يابيضـــا وجننتيني
جبت النبيت الأبيض وسكرتيني»

« ولما عادت السيدة الى سريرها بعد انتهاء الجراحة ، ذهبت اليها للاطمئنان بعد أن أفاقت من المخدر ، وقلت لها باللغة العربية : «مبروك» فلم تفهم قولي ، فذكرت لزوجها ما كان من غنائها باللغة العربية أثناء التخدير ، فقال : « لعل السر في ذلك أنها ، وهي طفلة منذ عشرين سنة ، عين أبوها فيمنصب بالسفارة الفرنسية في تونس، فاستأجر لطفلته مربية عربية تونسية ٠ وبعد أربعة أعوام ، عادت الأسرة الى فرنسا ولم تغادرها ، فلابد أن الفتاة تعلمت من حاضـــنتها التونسية بعض الأغاني العربية في تلك الحقبة الماضية البعيدة

« وفي اليوم التالي ذكرت الممرضة للسيدة قصة غنائها بكلمات عربية ، فلم تصدق ، وقالت هذا مستحيل ، ولم تذكر حرفا واحدا من الأغنية التي ترنمت بها في تخديرها » !

ويفسر الدكتور نجيب هذه الحادثة « ان

الذاكرة تتألف من « ألكترونات » تتكدس فى المادة السنجابية للمخ ، وتظل راكدة حتى ينزاح عنها العقل الواعى فتنطلق » ٠

ولعله يريد بهذا التفسير أن الأغنية العربية التى حفظتها فى طفولتها السيدة الفرنسية ، ونسيتها بمرور الاحداث والزمن قد اختزنت واختبأت فى الوعى الباطن حتى اذا سكن عنها الوعى الظاهر بتأثير المخدر انطلق الوعى الباطن يخرج ما اختبأ فيه ٠ وهذا ما يفسره علماء النفس بطريقتهم ٠

وقد ختم المؤلف كتابه بثلاثة فصول تضمنت عدة نظرات كونية وتأملات اجتماعية وآراء فلسفية وأدبية ٠ وهى بهذه العناوين : —

١ — « سر الخليقة » ٠ ٢ — « يد القدر » ٠
٣ — « الحياة وهل هى جديرة بأن نحياها » ٠

وقد تحدث فى الفصل الأول عن بعض مشاهداته لسر الطبيعة ، وكيف كان ٠ فى مبدأ دراسته للطبتسيطر عليه شكوك وشبهات تتصل بالعقيدة ومعرفة الخالق ٠ وكان منشأ هذه الشكوك حين تلقى الدرس الأول من الدكتور بيتر Bitter أستاذ «قانون الصحة» ٠ وموضوعه « ان المادة لاتفنى » فقال فى نفسه : اذا كانت المادة تتحلل ، ثم تعود سيرتها الأولى ٠ والمادة الأرضية هى كما هى لاتزيد ولاتنقص الا بما يتساقط عليها من نيازك السماء من حين الى حين — فكيف يقوم الناس لرب العالمين يوم القيامة ؟

وقد استبدت به الحيرة ، ولكنه ما لبث بعد تقدمه فى دراسة الطب أن رسخ ايمانه رسوخا لايتزعزع بقدرة الله العظمى ٠ ووجد فى هذه القدرة المدبرة ما لايمكن ادراكه بعقولنا ٠ وقد ضرب لذلك مثلا بقانون « حفظ النوع » فى الكائنات الدنيا كالميكروبات التى ليس لها جهاز عصبى ولامخ ، وانما هى خلية من «البروتوبلازم» لها خصائص الأجهزة جميعا ٠ ولها أعمال عجيبة فى المحافظة على نوعها — كما أعطانا عدة أمثلة لكائنات أخرى تدل أعمالها وحياتها على وجود اله قادر مدبر قد منحها من الخصائص ما تستطيع به أن تحيا وان تدافع عن حياتها كسائر المخلوقات ٠

وهنا نعرض لرأى المؤلف فى فصل « يد القدر » ٠ فقد تحدث فيه عن القضاء المحتوم والقدر المكتوب ، فقال : « ٠٠٠ لا أطمئن الى أن الله الذى ليس لكماله حد يعاقب أمرأ على شر فرضه عليه فرضا ولا حيلة له فيه كما أنه لايثيب امرأ على خير لم يكن له فضل فى اختياره ٠

« والتمادى فى الركون الى أن الانسان لم يكن يستطيع التخلص مما فعل ، يسوغ لبعض ذوى العقول السقيمة أن يترددوا فى مهاوى الرذيلة ، وان ينساقوا فى تيار الغواية ، وفى الحمل على الأقدار سبيل التبرؤ والاعتذار ٠

« وانما يضع الله أمام الناس طريقين ، ويترك لهم حرية الاختيار وقد أرسل اليهم كلمته ، وفيها يهديهم الى سواء السبيل ، فان سلكوه فلهم فى ذلك فضل ، وان لم يسلكوه فوزرهم على أنفسهم ٠٠ »

وهذا تفسير سليم لاريب فيه عند أكثر العلماء ٠ ولكن المؤلف تحدث فى آخر الفصل عما انتاب الشرق من التخلف فى العصور المتأخرة ، وأسند السبب فيه الى اعتقاد الشرقيين بالقضاء والقدر أو بما يعبر عنه مثل عامى يقول : تجرى جرى الوحوش ، وغير رزقك ماتحوش » ٠ ثم نقل كلمة من « كتاب كليلة ودمنة » على لسان الظبى الذى سقط فى الشرك يجيب بها « الجرز » : « وهل ينفع الكيس مع المقادير شيئا ؟ » ٠

والحقيقة أن تخلف الشرقيين فى العصور المتأخرة لم يكن لاعتقادهم بالقضاء والقدر ، فكلهم يعتقدون بأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وانما تخلفوا فى هذه العصور لتخاذلهم ومنازعاتهم وأطماع أمرائهم وحكامهم ، واسرافهم فى اللهو واللعب وممارسه الشهوات ، وغفلتهم عن توفير العدة والقوة ، وركونهم الى الكسل والتواكل ، وايثارهم للنعومة والرفاهية ، وتركهم للتعاون فى الوقت الذى عمل فيه أعداؤهم فى الغرب

لتوفير أسباب القوة والعدة ووسائل التقـدم العلمى والاقتصادى والحربى ٠

نعم كان فى الشرق « طائفة الجبريين » ، ولكن هذه الطائفة التى تقول بأن الانسان مجبر فى كل أحواله ، قد انقرضت فى أواخر القرن الرابع الهجرى ولم يبق لها أثر ٠

وفى فصل « الحياة وهل هى جـديرة بأن نحياها » انتقد رأى سليمان الحكيم الذى حين رأى المظالم التى تجرى تحت الشـمس غبط الاموات أكثر مما غبط الأحياء وفضل على كليهما من لم يولد فى هذه الدنيا ٠٠ كما أنه انتقد رأى فيلسوف المعرة الذى قال :

تعب كلها الحيـاة فما أعـ
جب الا من راغب فى ازدياد

ويقول الدكتور نجيب محفـوظ : « والذى أشعر به من صميم قلبى أن الحياة جديرة بأن نحياها ، لما تواتينا به من لذة الكفاح ، وما تمدنا به من كنوز المعرفة وما توقظ به عقولنا وترهف عزائمنا فى كفاح المجهول ٠٠ »

وليس فى الكتاب ما يؤاخذ عليه مؤلفـه الا أنه فى بعض فصـوله ذكر بعض الذكريات البسيطة الخاصة جدا وبعض الأسماء والتفصيلات اليسيرة التى لا يحتاج اليها القـارىء ، وهى ليست جديرة بالذكر فى حياة تاريخية كحياة الدكتور نجيب محفوظ ٠ وقد ختم الكتـاب بقوله :

«ولو كان لىأن أوجز خلاصة ما قرأتوما سمعت وما رأيت من طبيعة الخير والشر فيمن صادفتهم من الناس فى حياتى ، لقلت : انى عرفت عمق الهوة التى قد ينحدر اليها من يبتعدون عن الله، ولا يفكرون الا فى أنفسهم ، كما عرفت سمو الأوج الذى يبلغه من يتجهون الى الله ، ويفكرون فى الآخرين » !

وهذه العبارة تتفق وتلك الحكمة المأثورة التى سجلها على أول صفحة من الكتاب وهى : « اذا لم تكن قد أعطيت الناس نفسـك ، فانت لم تعطهم شيئا » ٠

طاهر الطناحى

سطور من كتاب ....

ومن هنا نرى أن متطلبات بنـاء الدولة ،تؤثر فى كل مرحلة من المراحل ، على الشئون الخارجيـة . فالسياسـة الخارجية بالنسـبةللدولة الجديدة هى فى الواقع سياسة داخلية ، تتبع بأساليب آخرى ٠ انهـا سياسه داخليـة تنفذ وراء حدود الدولة نفسها ٠ وكثيرا ما تشعر الدولة الجديدة التى تحررت مؤخراً من السيطرةالاستعمارية ، والتى تعى وعيا كاملا عجزها ، بالشك فى فكرة « الاعتماد » اذ أنها تمثل لها خطر تجدد سيطرة القوى على الضعيف ٠

... الحياد وعدم الانحياز



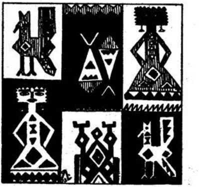
تناول مؤلف هذا الكتاب موضوعا له أهميته وخطورته فى تاريخ انتشار الدعوة الاسلامية فى مجالها الحيوى ، الذى يمتد من العراق شرقا الى ساحل افريقية ، المطل على المحيط الاطلسى – بحر الظلمات – غربا ، وتقبع فى جانب هذه المنطقة الشرقى أمة العرب ، التى أخذت ترسل مجموعاتها القبلية ، بسبب ما أصابها من الجفاف والتغيير المناخى ، الى الأقاليم المجاورة وبخاصة الى الجانب الغربى للبحر الأحمر . ولا شك فى أن اختيار هذا الموضوع لدراسة عالية – (جامعية) كان اختيارا موفقا ، فتح الطريق أمام الباحث الراغب فى الاستزادة ، لمواصلة البحث وتحقيق المصادر والروايات التى جاءت فيها بمقارنة بين مختلف النصوص .

وقد أعطى المؤلف لكتابه عنوانا واضح المعالم ، وهو « الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى » ، وهذا مما يجدد موضوع البحث وهو دراسة دخول الاسلام الى حوض وادى النيل الاوسط وعراكه مع النوبة ، وبخاصة لم تكن الدعوة المسيحية قد دخلت الى هذا الاقليم الا فى حوالى منتصف القرن السادس الميلادى ، أى قبل وصول الدعوة الاسلامية الى نفس المنطقة بحوالى قرن من الزمان ، وتحديد منتصف القرن السادس الميلادى لا ينفى أن المسيحية ، قد دخلت البلاد قبل ذلك ، غير ان هذا التاريخ ، هو الموعد الذى اعتنق فيه البيت الحاكم الدين المسيحى ، أما المسيحية فقد وصلت الى النوبة منذ أول دخولها الى اقليم مصر .

واذا رجعنا الى محتويات البحث نجد ان موضوع الدراسة ، مقسم سبعة فصول ، الاول والثانى منها عن النوبة فى اقليمها وأسمائها المختلفة ، ثم بلاد النوبة قبيل دخول المسيحية ومراحل تاريخها ، ويشغل الفصلان الثالث والرابع موضوع دخول المسيحية الى النوبه ، ثم النظم والحضارة فى ممالك النوبة . وشغلت هذه الفصول الاربع حوالى نصف مجموع الصفحات من الكتاب ، ويأتى بعد ذلك الفصل الخامس عن « النوبة والعرب » ، وبهذا ترك المؤلف لانتقال الحكم الى يد العرب فى مملكتى مقره

(دنقلة) وعلوه ثم قيام دويلات ومشيخات اسلامية فى المرحلة الأولى ثم دخول هذه الدويلات والمشيخات فى المرحلة الثانية فى زعامة شيخ لعبد اللاب الذى كان مركز زعامته فى القرى الواقعة عند خانق السيلوقة (بين الخرطوم وشندى) وفى المرحلة الثالثة دخلت هذه المجموعات وزعامتها فى حلف مع السلطان السنارى ، ترك لهذا الموضوع الكبير المتسع الأطراف حوالى الثمانين صفحة ، أى ربع المجموع الكلى لصفحات الكتاب بما فيها الملاحق والفهارس اللذين يشغلان حوالى الثمانين صفحه ، وهذا بلا شك قليل جدا بالنسبة لموضوع ، يعتبر الأساس فى البحث المتعدد الأطراف ، ويبدو ان المؤلف له عذره فى هذا الوضع ، وذلك يرجع الى عدة أسباب ، لم يكن من اليسير التغلب عليها ، وهى العدد القليل من المصادر العربيه والأجنبية التى عالجت هذه الفترة من الزمن من تاريخ انتشار الاسلام الى حوض وادى النيل الأوسط، وهى لاتزيد عن اثنين أو ثلاثة ، وهنالك عدة مقالات فى دوريات مختلفة ، مكتوبه بلغات أجنبية ، وقد اهتم المؤلف فى الحصول على عدد منها .

ونتعرض فيما يلى الى ما جاء فى هذا البحث، فالمؤلف تحدث فى فصول كتابه الأولى عن جماعة النوبة ، وذكر عددا من الأسماء التى أطلقت على هذه المجموعات ، ومنها نوبا ونوباديا أو نباطيا، وأنوبه Annouba ، وهذه فى أساسها ترجع



اصلا الى حرفين ساكنين الباء والنون ، وأشار الى ان هذه المجموعة قد اتخذت من الضفة الغربية لمجرى نهر النيل ، ولم يتعرض المؤلف الى الدور الهام الذى لعبه هؤلاء فى سقوط مملكة مرو ، فقد جاء هؤلاء من الغرب الى هذه المنطقة ، التى يعتقد أنها كانت شمال الخرطوم ، وعندما تكاثرت أعدادها وقويت شوكتهم تغلبوا على الأسرة الحاكمة فى مملكة مرو ، فاضطرت الى الخروج من عاصمتها الى الغرب ــ فى كردفان ــ حيث اتخذت مقامها ، واشتبك هؤلاء النوبة مع نجاشى الحبشة حيث قام بغزوهم وتخريب مدن مملكة مرو من منطقة بربر شمالا الى علوة جنوبا ، وكان ذلك الغزو فى حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى، وبهذا يحتمل أن الاسرة التى كانت تحكم مملكة مرو قد خرجت من وطنها فى حوالى نهاية القرن الثالث الميلادى .

كذلك لم يتعرض المؤلف لأصل لفظ نوبة ومترادفاته التى أطلقت على هذه المجموعة ، بل أكتفى باشارة عارضة الى لفظ نب Nubu فى اللغة المصرية القديمة ومعناه ذهب ، والواقع أن هذا اللفظ لا يمت بصلة الى اللفظ الذى أطلق على مجموعة النوبة ، بل انه لفظ مأخوذ من لغة أجنبية · ليست افريقية حيث تسود عدة لغات ترجع فى أصولها الى مصدر أم واحدة · وهذه اللغة الأجنبية التى أخذ منها هذا اللفظ ، هى لغة الرومان الذين أطلقوا على هذه المجموعة لفظ « نوماد » Namad أى بدو ، سكان مشارف الصحراء ويمارسون تجارة التوابل ويقومون بتربية الماعز ، وعرفت هذه المنطقة التى سكنها هؤلاء نوماديا "Nomidia" فى ليبيا · وحدث تغيير فى الحرف الساكن الثانى وهو الميم بحرف الباء ، وهذا الاستبدال معروف فى اللهجات الحامية المختلفة · وانتقل هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم « نوبة » أو مترادفاتها الى حوض وادى النيل جنوب الشلال الأول فى ثلاث مجموعات ، جاءت أولاها الى المنطقة الواقعة على ضفة النيل الغربية أمام مملكة مرو ، وثانيتها مجموعة المقرة أو الماكورة التى جاءت الى منطقة «المقرة» أو دنقلة ، ثم ثالثتها مجموعة النوبة التى جاءت من الواحات المصرية فى حوالى القرن

الثالث الميلادى بدعوة من دقلديانوس للسكن فى جنوب الشلال الأول للمحافظة على حدود مصر الجنوبية ، أما منطقة المحس أو أرض الحجر والواقعة جنوب وادى حلفا فسكانها لم يخرجوا من موطنهم كما فعلت المجموعات التى يطلق عليها نوبا أو نوبة ، والمعروف ان هؤلاء النوبا والنوبة قد خرجوا من حوض وادى النيل فى زمن بعيد قبل الميلاد الى الغرب والشمال الغربى ووصلوا الى ساحل المغرب الاقصى وانتقلوا الى جزائر المحيط الاطلسى ، وعادوا بعد ذلك الى حوض النيل بسبب الجفاف الذى حول الأراضى الخصبة الى صحراوات وهبط مستوى المياه الجوفية تدريجيا ، فكان لزاما عليهم ترك الوطن غير الملائم للحياة .

ويذكر المؤلف فى صفحة ١٠ أن أهل النوبة ينقسمون خمس مجموعات رئيسية ولم يذكر سوى أربع مجموعات ، وربما سقطت المجموعة الخامسة على حسب تقديره خلال طباعة الكتاب ، وربما كانت هذه المجموعة الخامسة هى نوبا جبال كردفان . والملاحظة أن المؤلف قد فصل بين الفادجة والمحس وجعلهما مجموعتين وهم فى الواقع من أصل واحد ولهجتهما متحدة ، ويكونون مجموعة واحدة .

وننتقل بعد هذا الى دخول العرب المسلمين الى حوض وادى النيل الأوسط ، الموضوع الذى خصص له المؤلف الفصل الخامس « النوبيون والعرب » ، واعتمد المؤلف فى بحثه على مصادر كثيرة كانت فى حاجة شديدة الى تمحيصها وتحقيق ما جاء فيها فهى تقول بما يشير الى أن العرب المسلمين قد جاءوا فى كثرة عن طريق برزخ السويس . فاذا أخذنا بعين الاعتبار أعداد القوات العسكرية التى جاءت مع الولاة الى مصر وشمال افريقية عن طريق برزخ السويس ، واسقطنا هذه الأعداد الكبيرة من تقديرنا الكلى لوجدنا أن العرب المشتغلين بالحرف والمهن الذين جاءوا عن هذا الطريق لايزيد عن حوالى عشرة فى المائة من العدد الكلى ، واذا قارنا هذا العدد مع المجموعات التى دخلت حوض وادى النيل الأوسط عن طريق البحر الأحمر مباشرة لوجدنا ان عدد هؤلاء كان أكثر من المجموعات التى دخلت عن طريق برزخ السويس ووجدنا بالاضافة الى ذلك ان هؤلاء الذين دخلوا مباشرة الى حوض وادى النيل الأوسط كانوا من رجال الأعمال ونسبة قليلة منهم من رجال الدين الصوفية .

ونجد أيضا ان معالجة هذا الموضوع كانت على ضوء عدد من المصادر التى لم تحقق نصوصها ، وجعلت ماكتبه المؤلف صورة لما ورد فى تلك المصادر دون الوصول الى رأى بعد تقييم مختلف الآراء والنظريات .

ويقول المؤلف فى صفحة ١٠٧ ما يشير الى أن الاتصال كان قويا بين الجزيرة العربية وبين حوض وادى النيل الأوسط ، وأن العرب قد اتخذوا لهم مراكز على الساحل الافريقى للبحر الأحمر ومنها توغلوا الى داخل القارة الأفريقية . وطبيعى أن هؤلاء العرب الذين جاءوا الى ساحل البحر الأحمر الأفريقى قد جاءوا عبر زمن طويل بدأ بالقرن الأول الهجرى عندما حاول القراصنة من ساحل البحر الأحمر الافريقى الهجوم على جدة فى عام (٧٠٢ م) وخشى المسلمون أن تمتد يد هؤلاء الى الداخل فتصل الى الأماكن المقدسة لذلك عمدوا الى احتلال مجموعة جزائر دهلك وامتد احتلالهم الى الشاطىء حيث أقاموا مراسى تجارية فى عيذاب وسواكن وباضع ، وكانت بذلك سفن عربية تمخر عباب البحر الأحمر من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ، وهذا يدحض الرأى الافرنجى القائل بأن العرب كانوا يكرهون البحر والسفر فيه .

ويجدر بنا أن نشير أيضا الى أن دخول جماعات عربية مسلمة قد كان فى القرنين الأولين لظهور الدعوة الاسلامية ، وقد دخل هؤلاء كما يذكر بدج من ساحل البحر الأحمر عبر منطقة مملكة مرو الى علوة والمدن الأخرى على حوض وادى النيل الأوسط وما حواليه . ونشير الى قيام دولة اسلامية فى حوض القاش – فى غرب الارتيريا والتاكة – فى حوالى القرن الرابع الهجرى ان لم يكن قبل ذلك بزمن ليس بالقصير – ويقول ابن حوقل أن سلطان هذه المنطقة ، التى كانت تعرف بارض دجن ، كان مسلما يتكلم العربية

وكانت ولايته عن صاحب علوة المسيحية .

ويقول المؤلف انه قد سمح للعرب المهاجرين والمترددين على سوبا للتجارة وغيرها ببناء مسجد فى العاصمة والمعروف أنه كان للعرب حينذاك رباط خاص بهم ، ومن الطبيعى ان بناء هذا الرباط لم يكن فى فترة قصيرة من الزمن ، بل كان نتيجة لعمل مستمر لأكثر من قرن من الزمان . ويجمل بنا أن نشير ونحن فى حديث عن المسجد ، أن النص الذى نقل عنه المؤلف : عن ترجمة عربية لكتاب الدعوة الى الاسلام لمؤلفه توماس ارنولد ، جاء فيه أن العرب أقاموا مسجدا بينما أن النص فى الانجليزية يقول أنهم طلبوا السماح لهم ببناء مسجد ، وهنالك فارق واضح بين طلب السماح بالبناء وبين اقامة البناء ، وبخاصة فى بحث علمى .

وننتقل الآن الى الفصل الأخير من الكتاب وهو الفصل السابع الخاص « بسقوط علوة المسيحية وانتشار الاسلام والثقافة العربية » . وهذه نقطة خطيرة وكاملة الخطورة فى دراسة مراحل انتشار الرسالة الاسلامية فى حوض وادى النيل الأوسط ، الأمر الذى كان يتطلب دراسة للمجتمع وتكوينه وتقاليده وظروف بيئته . فالدمشقى يذكر (١٢٥٦/١٣٢٧ م) أن ملك علوة يسكن مدينة كوسة (قوص الواغلة لا مدينة سوبا أى أن حكومته قد تركت مركزها وذهبت بعيدا فى كردفان ، ويضيف المؤلف « وعلى الرغم من انتقال العاصمة من سوبا الى كوسة واستيلاء القبائل العربية على معظم أقاليم علوه ، فان هذا لايعنى سقوط تلك المملكة حتى القرن الخامس عشر الميلادى على الأقل . ذلك بأن العرب لم ينشئوا حكومة مركزية تخضع لها سائر الاقاليم لأسباب واضحة منها « عدم انقياد بعضهم الى بعض ، فصاروا شيعا لهذا العهد — لا ومصدره فى ذلك قول ابن خلدون العبر ج ٥ ص ٤٢٩) وهذا فى الواقع فى حاجة الى دراسة جديدة ، فالعرب الذين يشير اليهم ابن خلدون هم عرب البادية ، أما الجماعات العربية التى أقامت الحكم فى حوض وادى النيل الأوسط — وبخاصة فى منطقتى البسطانة والنيل الازرق قد جاءوا من الساحل الافريقى الشرقى عبر أثيوبيا وغيرها ومارسوا الحياةالتجاريةوخبروها كما مارسوا تقاليد وعادات تجارية هامة . ويقول المؤلف أن ظهور عدة ممالك ومشيخات اسلامية فى حوض النيل الاوسط كان له آثار خطيرة فى تطوير الحياة الاجتماعية والسياسية كذلك ، مما ساعد على زوال الأسس التى قامت عليها المملكة المسيحية » وهذا القول الذى جاء فى صفحة ٢٠٤ يدحض قول ابن خلدون بأن العرب كانوا شيعا لهذا العهد كما جاء فى صفحة ٢٠٣ والمؤكد أن خروج ملوك علوة الى كردفان واتخاذهم قوص الواغلة مركزا لهم قد أبعدهم عن الحكم منذ القرن الرابع عشر الميلادى .

أما عن أصل البيت الحاكم الذى جاء الى سنار فى حوالى النصف الاول من القرن السادس عشر الميلادى ، فالآراء والنظريات عنهم عديدة ، غير أنه من السهولة بمكان مقارنة هذه الآراء مع التطورات فى الاقليم الكبير الذى يمتد من ساحل شرق افريقية وهضبة البحيرات جنوبا الى مصر شمالا ويمتد غربا الى المغرب الاقصى والاندلس وغيرها فان ذلك يمكن من الوصول الى رأى سليم . فالفونج وهم ملوك سنار كانوا من الأمويين وصلوا الى ساحل شرق أفريقية وانتقلوا الى الشمال وتصاهروا مع بيت السلطان مكنز الذى كان يحكم فى غرب الارتيريا وهم الذين ورد ذكرهم فى المخطوطات المحلية سابناء بيت عين الشمس أو الأونساب نسبة الى حوض نهير أو نسبه الى الذى كانوا يسكنونه قبلا .

ونختم هذا العرض بالشكر للمؤلف على جهده المضنى لاخراج هذا العمل المفيد .

الشاطر بوصيلى عبد الجليل



هذا كتاب فى تاريخ الصحافة الأمريكية ـ تلك الصحافة التى تتمتع بقدر كبير من الحرية يحسدها عليه كل من نزح الى تلك البلاد أو رجع منها • ولا عجب فى ذلك فالصحفى الأمريكى هو الرجل الذى يعيش فى قلب الحياة الأمريكية أكثر من غيره • وهو الرجل الذى يعتبر نموذجا يحتذى فى الصحافة الى يومنا هذا • ثم هو الرجل الذى أتيحت له من الامكانيات المادية والطباعية مالم يتح لسواه •

ويشتمل الكتاب على فصول :

أولها ـ الصحافة الأمريكية فى عهد الاستعمار البريطانى •

ثانيها ـ الصحافة الأمريكية فى العهد الجمهورى •

ثالثها ورابعها ـ الصحافة الأمريكية فى القرن التاسع عشر •

وخامسها ـ الصحافة الأمريكية فى عهد التكتلات الصحفية أو ما يسميه المؤلف « عهد الامبراطوريات فى ورق الصحف » •

وسادسها ـ دنيا الأنباء • وأهم ما جاء فى هذا الفصل الأخير حديث المؤلف عن المؤتمرات الصحفية وكيف أصبحت ضرورة من ضرورات « البيت الأبيض » • ثم حديثه كذلك عن رؤساء الجمهورية من زاوية اعلامية •

وختم المؤلف كتابه بكلمة عنوانها : هل يختفى الصحفى ؟ أشار فيها الى المنافسة القائمة بين الصحافة الحديثة والراديو والتليفزيون وأقسام العلاقات العامة فى دور الحكومة والشركات والمؤسسات وغير ذلك من وسائل الاعلام المعروفة فى عصرنا هذا • ثم تساءل بعد ذلك : هل فى استطاعة الصحفى أن يشق طريقه وسط هذا الزحام ؟ وهل هو على دعواه القديمة من أنه يمثل ضمير الشعب وانه معلم هذا الشعب وأنه غيور على حرية الرأى التى يحرص عليها الشعب • غير أن اجابة المؤلف حملت طابع الشك فى صدق هذه الدعوى •

الصحافة الأمريكية فى عهد الاستعمار والسمات العامة لهذه الصحافة

يحرص القارىء دائما على أنه يعرف ماهى أول صحيفة ظهرت فى البلد الذى يقرأ شيئا عن تاريخ صحافته • ويجيب المؤلف عن ذلك بأن أول صحيفة ظهرت فى أمريكا هى صحيفة الحوادث العامة : لصاحبها بنيامين هيريس :

Public Occurrecies

وذلك فى مدينة بوسطن سنة ١٦٩٠

وكان الطابع العام لهذه الصحافة فى طورها الأول سمات عامة منها :

أولا — ان الصحافة الأمريكية كانت تقوم على فئتين من الناس هما فئة أصحاب المطابع ، وفئة مديرى مكاتب البريد • وكان رجال الفئتين معا مدفوعين الى ذلك بعامل الرزق والرغبة فى زيادة الدخل •

ثانيا — أن صحف العهد الأول انما كانت تصدر فى الموانى الأمريكية • وكان الهدف الأساسى من الصحف التى تصدر فى الموانى هو تزويد التجار بالمعلومات الضرورية عن السفن الآتية عبر المحيط • ثم لم يكن الا بعد منتصف القرن الثامن عشر ان انتقل مركز الثقل الصحفى من الموانى الى المدن • وأصبح لها طابع جديد يخالف الطابع التجارى البحت الذى كانت عليه من قبل • كما أصبحت الصحف تشتمل كذلك على بعض الأخبار المحلية للمدينة •

ثالثا — دفاع الصحافة فى ذلك الطور عن الحريه ، نعم ساندت الصحف زعماء الحرية من أمثال « چيمس فرانكلين » ، « جون بيتر زنجر » • وقد قام الأخير بحملة عنيفة ضد احدى الولايات فقبض عليه الحاكم ومنع المحامين من الدفاع عنه • ولكن كبير المحامين فى فيلادلفيا تطوع للدفاع عما سماه اذ ذاك « حق الاعتراض العلنى على مساوىء السلطة » • وقال ان هذه القضية ليست قضية الطابع ولا قضية الصحيفة ولكنها قضية الحرية • ولهذا حكم بالبراءة لزنجر • وكان ذلك أول انتصار لحرية الصحف الأمريكية.

رابعا — ومن سمات الصحف فى ذلك العهد كذلك ميلها الى احتذاء صحف انجلترا فى التحرير والاخراج ، ورغبتها فى تقليد كبار الكتاب الانجليز من أمثال : ستيل واديسون وديفو • وكان الصحفى الأمريكى چيمس فرانكلين من أكبر الدعاة الى تلك الحركة •

ولقد عرض المؤلف لأبطال الصحافة الأمريكية فى عهد الاستعمار وذكر آثارهم • ولكن نسى الاشارة الى أخطر ثائر تزعم حركة الدفاع عن القضية الوطنية الأمريكية • ونعنى به « توماس پين » Paine ، ففى سنة ١٧٧٤ وفد هذا الثائر الى أمريكا وقام على تحرير صحيفة (بنسلفانيا ما جازين) • وفيها كتب فى تفضيل الجمهورية على الملكية ، وشن أقوى حملاته على التفرقة العنصرية ، ودعا الى تحرير الزنوج ، كما دعا الى تحرير المرأة • ويقول چورچ ڤيل فى كتابه عن تاريخ الصحافة فى أوروبا وأمريكا : ان هذا الرجل لقى من النجاح ما اذهل الثوار انفسهم وأدركوا معه جميل صنع القدر بهم اذ هداهم الى عبقرى مثله •

الصحافة الأمريكية فى العهد الجمهورى

فى عام ١٧٩٨ بدأ حكم الاقطاع ينهار فى أوروبا بعد أن سيطر عليها نحوا من عشرة قرون • ودارت المناقشات حول نوع الحكم الذى يجب أن يسود أمريكا • واشترك فى الجدل كل من هاملتون ، وجيفرسون ، وراندولف وغيرهم • وكانت الصحف جزءا من هذا التطور • وكان عصر الثورة قد جعل من الصحيفة ندوة • وأصبح الصحفى الأمريكى محررا أكثر منه صاحب مطبعة فقط • وأصبحت الدعاية ، فى الصحف وهى الساعد الأيمن لكل نشاط سياسى من جانب الاحزاب والهيئات العامة • وكانت الصحف تحصل على الأموال السرية من هذه الاحزاب • وكانت هذه الأموال تعطى للصحف على أنها معونات مالية — لا لشراء ذممها ولكن لمساعدتها على المضى فى خطتها الحزبية وتهيئة المجتمع الأمريكى لتغير أفضل •

هنا اتسع المجال لظهور شخصيات جديدة فى عالم الصحافة منها شخصيات بنيامين راسل •

وكان من أكبر الدعاه لحركة اتحـاد الولايات الأمريكية • وقد نشر فى صحيفة رسما يمثـل « صرح الاتحاد » • وكلما تم تصديق ولاية من الولايات على هذا الاتحاد أضاف عمودا جديدا الى هذا الصرح !

كما شهدت الصحافة الأمريكية كثيرين من العمالقة والنابغين فى هـذا الميدان • منهم نوح ويستر الأمريكى ، ووليم كولمان ، ووليم كالين ، وفيليب فرينو • وكان هذا الأخير يمتاز بثقافته الجامعية العميقة • وكان من دعاة الجمهورية • ومن شوامخ الصحافة اذ ذاك «بنيامين فرانكلين» حفيد فرانكلين الكبير • وكان عدوا لدودا للرئيس واشنطون • وكان يقول فيه : اذا كانت هناك أمة يستطيع أن يفسدها رجل فان الأمة الأمريكية قد أفسدها واشنطون » •

الصحافة الأمريكية فى القرن التاسع عشر

بلغ عدد الصحف الأمريكية فى عام ١٨٣٠ سبعمائة صحيفة منها خمس وستون من الصحف اليومية • وفى عام ١٨٤٠ بلغ المجموع ١٤٠٤ منها ١٣٨ صحيفة يومية • أما التقدم الفنى لهـذه الصحف فكان بطيئا وتحولت المسـتعمرات الى ولايات فقويت الروابط بين الصحافة والسياسة والنهضة وازدادت العنايه بالصحف السياسية• غير ان ذلك لم يؤثر فى حركة الصحف التجارية فان الهيئات السياسية تجىء وتذهب ولكن التبادل التجارى باق الى الأبد • من ثم أصبح ٦٠ ٪ أو ٨٠ ٪ من مادة الصحف اعلانيا بحتا • ومن تلك الصحف التجارية نبعت فكرة الدعوة الى انشاء وطن قومى لليهود (أبنـاء موسى المنكوبين فى الأرض) • فقد أعلن الصحفى اليهودى نوح عن عزمه على انشاء هـذا الوطن القومى فى الأرض المعروفة باسم « جراند ايلاند » فى نهر نياجرا •

وبالفعل أنشأ مدينة هناك سماها « ارارات » • ودعا اليهود فى العالم كله اليها فلم يستجب له يهودى واحدا !

وأخيرا نصل الى حركة التجديد فى منتصف القرن • فنجد هذا التجديد أثرا من آثار التقدم الصناعى الذى ساد البلاد بعـد عام ١٨٣٥ • فتقدمت الصحافة فى اخراجها وظهرت فى صورة جديدة كل الجدة •

لقد كانت الصحف فى العهود الماضية عبارة عن أعمال اضافية يقوم بها أصحاب المطابع ومديرو البريد فى القدر الأول • وعندما اتسع المجتمع الأمريكى فى القرن التاسع عشر ازداد اتجاهه نحو التخصص • فأصبحت هناك صـحف سياسية وأخرى زراعية وثالثة ادبية أو فنية وهكـذا • وساعد التقدم الآلى على حرية الصحف • ولكنها حرية لها ثمنها كسائر الحريات الأخرى •

وانتشر البرق وأصبحت المسافة بين أوروبا وامريكا تقـدر باثنى عشر يوما فانعم ذلك على الصحافة بنعمة أخرى – عدا الحرية – هى نعمة الجدة • وبدأ الأمريكى فى النصـف الثانى من القرن قصة غرامه (بالسرعة) •

وكان من آثار هذا التغير الواسع الذى طرأ على الحياة الأمريكية أن ظهرت الصحافة الزهيدة الثمن – أو – (صحافة البنس) وتسمى كذلك (صحافة الجماهير) • وكانت أول تجربة ناجحة لها فى صحيفة(الفن)لصاحبها بنيامين داى صاحب مطبعة ماساشوستس ولأول مرة فى التـاريخ قام بتوزيع صحف البنس باعة الصحف فى المدن• وكان هذا تجديدا له جهاد فى عالم الصحافة •

ونبغ فى تلك الآونة عدد كبـير من رجال الصحف منهم على سبيل المثال : جيمس جوردون

بينيت (أبو الصحافة الحديثة فى أمريكا) وصاحب (النيويورك هرالد) التى صدرت فى سنة ١٨٢٥. ثم هوراس جريلى صاحب جريدة النيويورك تريبيون الصادرة فى سنة ١٨٤١ . وقد أفلح جريلى هذا فى تنبيه العالم الى أنه من الواجب أن تكون للصحيفة اذن تصغى بها لشكايات المعذبين فى الارض ، وأن يكون لها قلب تحس به الاضطهاد والاهانة فى كل بقعة من بقاع هذه الارض ، وأن يكون لها حس تستنكر به الجرائم التى تحدث فى أية لحظة من لحظات الحياة على هذه الأرض»!!

ثم من شوامخ الصحافة فى ذلك القرن كولن برايينت صاحب جريدة اليوست الصادرة فى سنة ١٨٢٩ . وكانت هذه الأخيرة جريدةلعلية القوم . وكان توزيعها متوسطا لهذا السبب . ومن نوابغهم كذلك هنرى رايموند . وهو أشهر من كتب فى صحيفة النيويورك تايمز الصادرة فى سنة ١٨٥١ . وكان ظهورها حدثا هاما فى تاريخ الصحافة .

ومنذ ذلك الوقت أحس الناس أن انشاء جريدة قد أصبح باهظ التكاليف . وهنا اتجه التفكير الى ما يسمى : « بالتكتلات الصحفية » — نعنى ظهور الجرائد والمجلات فى كتل تضم كل كتلة منها عددا من تلك الصحف ، يساعد الغنى منها الفقير والقوى منها الضعيف دون علم من القراء أنفسهم.

ظهور المندوب الصحفى فى الميدان

وقبل الكلام عن هذه التكتلات يجمل بنا أن نشير الى الدور العظيم الذى قام به شخص جديد طرأ على ميدان الصحافة وهو « مندوب الاخبار » الذى يجلب لها هذه الأخبار من الأماكن القريبة والبعيدة .

والواقع أنه لم يكن هناك فرق واضح بين صحف الأقاليم والصحف الكبرى غير (الأخبار) وقدرة الصحف الكبرى على تغطيتها الى الحد الذى تعجز عنه صحف الأقاليم ، ثم كانت الحرب الاهلية نقطة تحول فى عملية استيفاء الانباء . فقد ذهب أكثر من مائة مراسل الى ساحة القتال. وانفقت (النيويورك هرالد) وحدها نصف مليون جنيه لتغطية أنباء الحرب . وبظهور مندوب الاخبار ظهر منافس خطير للصحفى الأمريكى سواء كان هذا الصحفى صاحب مطبعة ، أم كان من الكتاب الموهوبين ذوى الثقافة العالية . اذ ذاك كان المندوب الصحفى يتجه الى أن يكون جنديا من جنود المشاة فى الخطوط الامامية لجيش صاحبة الجلالة الصحافة . واتسع المجال أمام هؤلاء المندوبين أو المراسلين لكى يدونوا فى السجل الصحافى فصولا هامة فى تاريخ الرأى العام الامريكى .

عصر التكتلات الصحفية أو عصر الامبراطوريات فى ورق الصحف

وفى ختام القرن سيطرت على مجالس الصحف طبقة جديدة قل فيها السياسيون والأدباء ، وحل مكانهم أصحاب الملايين ورءوس الأموال . وصادف ذلك تقدم الطباعة . فلم تأت سنة ١٨٩٥ حتى كانت شركة (هو) تملك آلة للطباعة تضم ثمانى اسطوانات كل واحدة منها تتسع لأربع صفحات وتنتج فى الساعة اربعة وعشرين ألف نسخة، لجريدة من اثنين وثلاثين صفحة . أما الورق فقد ارتفع انتاجه فى نهاية القرن وانخفض سعره . ثم ظهرت آلة اللينوتيب التى تصف الحروف صفا (أوتوماتيكيا) أى تلقائيا ثم ترفع الحروف لتستخدم فى السطر . ثم تصب الحروف المستعملة مرة أخرى وهكذا .

لذلك اضطر أصحاب الصحف الى الاستدانة. ولجأوا كذلك الى الاعلان . وظهرت حاجتهم الماسة

الى رءوس الأموال • وبدا ذلهم للقارىء • فراحوا يغرونه بالاثارة ونشر الفضائح الكثيرة . وكان من دعاة هذا الضرب الأخير من الصحف : « چوزيف بوليتزر » فى جريدة (نيويورك ويرلد) الصادرة فى عام ١٨٨٣ • وكان بين رسوم هذه الجريدة رسم يمثل طفلا فى قميص أصفر اللون فضفاض أطلق عليه المحرر اسم « الغلام الأصفر » وهو الذى أوحى بعد ذلك باسم الصحافة الصفراء وهو اسم يطلق على الصحافة التى تبنى على الاثارة •

وفى سنة ١٨٩٥ ظهر لبولتزر ، منافس خطر هو : هيرست مضى فى خطة الاثاره منذ كما تقدمت سنة من عمره وهو يكشف فضائح ١٠ أخطاء الأمريكى ويمثل الصحافة الصفراء فى أزهى صفرتها •

بهذه الطريقة تحول النفوذ الصحفى من كاتب المقال الى كاتب الأخبار – أو على الأصح – كاتب التحقيقات الصحفية وهى الفن الصحفى الذى استحدثه القرن العشرون وأصبحت له الصولة الحقيقية فى ميدان صاحبة الجلالة الى اليوم •

الدكتور عبد اللطيف حمزة



سطور من كتاب ....

عجبت للقوم : أطماع مفرقة
قد ضمها لاغتيال الشرق آراب

ابن البتول الطهور الحى قد نسيت
آلامه ، وتناسى الغدر أصلاب

تحالفت عصبة منهم يقودهم
عاد على الحق نهاز ووثاب

تحالفت وفلول الغدر ، وائتمرت
فالضد للضد أنصار وأحباب

موسى وعيسى براء من شرورهم
فما لهم فى أصول الخير أنساب

... صدى ونور ودموع

بينيت (أبو ال
(النيوير

وم عند العرب

تأليف : قدري حافظ طوقان

الناشر مكتبة مصر بالاشتراك مع مشروع الالف كتاب ٢٣٨ صفحة قطع متوسط



يعرفنا هذا الكتاب بمشاهير علمائنا العرب وما خلفوا من تراث علمي يعتد به ٠ وهو يتكون من بابين قوام أولهما ستة فصول يبين فيها المؤلف مآثر العرب فى علوم الطب والصيدلة والكيمياء والأحياء والفيزياء والرياضة والفلك والجغرافيا، وهى تتضمن مجموعة ما انقسمت اليه العـلوم الأساسية فى العصر الحديث ، مما يدرس فى الجامعات . وفى الفصل الأخير من هـذا الباب تعقيب طريف عن النزعة العلمية فى تراثنا العربى. أما الباب الثانى فهو انما يتضمن نبذات موجزة عن مشاهير العلماء من أمثال جابر بن حيـان ، والخوارزمى ، والكندى ، والجاحظ ، وثابت بن قرة ، وأبو بكر الرازى ، والفارابى ، وابن سينا، وابن الهيثم ، والبيرونى ، وابن حزم الاندلسى ، والغزالى، والادريسى، وابن النفيس، وابن البيطار، والطوسى ، وابن خلدون ٠

والحق لقد بذل المؤلف جهدا ظاهرا حيـال نقطة بالذات ، وهى أن يدلل بالحجة الدامغة أن العرب قـاموا بـدورهم فى بنـاء صرح الحضـارة وخـدمة العلم بما تم على أيديهم من أعمال جليلة فى شتى الميادين والمجالات التى كانت بمثابة الأسس التى وضعت بذور النهضة العلمية الحـديثة ، وأنهم حملوا راية العلم عالية خفاقة ، وأطلقوا العنان للتفكير الحر السليم ابان حضارتهم وانقذوا تراث الاغريق وغيرهم العلمى من الاندثار ابان العصور الوسطى المظلمة التى شن الغربيون فيها حربا لاهوادة فيها كادت أن تقضى على معالم تلك الحضارات بشتى الطرق ٠

وكان الدافع الذى حفزه على كتابة هذا المؤلف القيم الذى يعتد به أعتقاد الكثير من الناس سواء فى الشرق أو فى الغرب أن العقل العربى لم يقدم

فى جميع مراحله خدمات علمية جليلة يعتد بها ، على غرار ما فعل الغربيون على يد أمثال جوهان كبلر ، واسحق نيوتن ، ولوى باستير مثلا . وهو يعزو هذا الجهل لفضل العرب الى تحايل بعض مؤرخى الفرنجة ، اما عن قصد منهم أو عن جهل لديهم ، باغفال هذا التراث ، كل ذلك الى جانب اهمال العرب أنفسهم لتراثهم وتاريخهم المجيد ، اللهم الا اذا استثنينا بعض الكتاب المعاصرين من العرب والفرنجة المنصفين من أمثال سارطون، ونيكلسون ، ودى‌فو ، وكاجورى ، ووايدمان ، وماكس مايرهوف ، وكمستون ... مما يحملنا على الجزم بأنه لولا جهود العرب التى بذلت فى ميادين العلم والمعرفة لبزغ فجر النهضة الأوربية فى القرن الرابع عشر من نفس النقطة التى بدأ منها العرب نهضتهم العلمية فى القرن الثامن الميلادى .

ومهما يكن من شيء فان الذى يقرأ الكتاب انما يخرج بالنتائج الهامة الآتية :

١ ـ لم يكن العرب مجرد حملة لمشاعل الثقافة الاغريقية نقلوها أو ترجموها دون اضافات أصيلة تمت على أيديهم .

٢ ـ توفرت لدى العرب العقليات التى يعتد بها ، والتى تضاهى ما يفاخر به الغربيون ويضربون به المثل من آن لآخر فى كتاباتهم ومؤلفاتهم . هذا كما ثبت أنهم قابلون تماما لهضم الحضارات المختلفة ومسايرتها ، بما يتوفر لديهم من ذكاء وحيوية وخيال خصب فسيح ، وحرية تامة مطلقة لاتتقيد بعقيدة خاصة ولاترتبط باملاء معين .

٣ ـ كان العرب من ذوى العلم التجريبى ، الذى يقوم على أسس المشاهدة والقياس ، والذى هو دعامة النهضة الحديثة فى أوروبا .

٤ ـ استحدث العرب كثيرا من العلوم كما أنجزوا العديد من الاضافات ، مثل الاحصاء ، والعشرى ، واستعمال الصفر لنفس الغرض الذى نستعمله له الآن ، واستعملوا الجبر بعد أن وضعوا أسسه ، وصاغوا حساب المثلثات فى قالب علمى منظم مستقل عن الفلك ، مما حمل بعض الكتاب على اعتباره علميا عربيا . هذا كما تقدمت العلوم الجغرافية على أيديهم ، بان صححوا أخطاء بطليموس ، وكشفوا عن مناطق لم تكن معروفة فى بعض القارات القديمة . وهم أول من وضع أصول الرسم على سطح كروى . أما فى الكيمياء فقد عرفوا التقطير والترشيح والتبلور ، وكشفوا بعض الحوامض والمركبات الكيميائية . ولهم السبق فى تحضير حامض الكبريتيك ، وحامض الأزوتيك ، وماء الذهب ، والصودا الكاوية . هذا كما حصلوا على الزرنيخ وغيره من المواد التى تستخدم فى الصناعات الحديثة ، لصناعة الصابون ، والورق، والأصبغة ، والمفرقعات ، والاسمدة الصناعية .

٥ ـ لم يقف العرب عند حد الشرح ، بل خرجوا الى منهاج جديد فى بعض البحوث الفلسفية. ولقد سلك فلاسفتهم مسلكا مستقلا غير تابع لما فسر به القرآن .

٦ ـ أما فى مجال الفلك فقد وثبوا وثبات جبارة ، بأن نقلوا كتب الأقدمين من الاغريق والفرس والسريان والهنود ، وصححوا ما فيها من أخطاء مع التوسع الى حد بعيد . وتمت على أيديهم كشوف جليلة ، كان أساسها الرصد الفعلى وليس مجرد النظريات الخيالية . كل ذلك بالاضافة الى تطهير علم الفلك من أدران التنجيم الذى كان مستحوذا عليه . وهم أول من أوجد بطريقة علمية أطول درجة من خط نصف النهار.

٧ ـ ولم تكن الفيزياء أقل نصيبا من غيرها من العلوم كما يدعى أغلب كتاب الفرنجة. فقد كانوا أول من نادوا بالأخذ بالاستقراء والقياس



والتمثيل ، ولزوم رصد ماهو قائم فعلا فى عالم الطبيعة . وعلى هذا الأساس وصل العرب فى علم البصريات (الضـوء) الى أعلى المراتب . ويعتبر ابن الهيثم رائد هذا العلم فى مستهل القرن الحادى عشر الميلادى .

٨ - انقذ العرب علوم الطب من الاندثار ، وجعلوا الجراحة قسما منفصلا من أقسامها ، وانشأوا المستشـفيات . كل ذلك الى جانب تشييد أسس الصيدلة وانشاء مدارسها . وقد استنبطوا العديد من العقاقير ، وشرحوا طرق استخدامها لمداواة المرضى .

ولقد كانت للعرب أساليبهم المتطورة التى يسلكونها فى كتاباتهم . فهى فى صدر الاسلام غيرها فى العصر العباسى الذى ازدهرت فيـه العلوم ، الا أنهم تميزوا دائما بالدقـة وتحرى الحقيقه قدر المستطاع . ولعل الذى أثار فيهم تلك الروح جمع الأحاديث النبوية . هذا كما دخلت أصول المنطق الذى نقـلوه عن الاغريق ضمن أساليبهم ، وسيطرت الى حـد بعيد على كثير من علمائهم .

وكان طبيعيا أن تتباين الأساليب وتختلف بتباين العلماء والكتـاب : فمنهم من جمع فى أسلوبه بين الادب والعـلم ، ومنهم من تميزت كتاباته بالدقة والوضوح ، كما سار آخرون فى بحوثهم التى شملت مختلف الفروع على منهـاج لايختلف كثيرا عن الطرق الحديثة ، مما يدل على أنهم عرفوا مثل هذه الطرق التى تعد من مبتكرات هذا العصر . وحتى فى البحوث الدينية سلك بعض علمائهم مسلكا علميا فيما وضعوا من رسائل يعتد بها .

وعلى أية حال ، فان أهم مميزات كتاباتهم الجمع بين العـلم والأدب . أو الأدب ونواحى المعرفة الأخرى كالفلسفة والتاريخ . فتجد من بين علمـائهم من جمع بين روائع الأدب ودقائق العلم ، كما هو الحال فى كتاب الخوارزمى فى الجبر مثلا ، حيث يفرغ المؤلف المادة الرياضية فى أسلوب أخاذ ينم عن أدب رفيع . هذا كمـا أن كتب البيرونى انما تبين فى جلاء ووضـوح تعانق الأدب والرياضيات ، على غرار ما جاء فى كتابه (التفهيم لأوائل صناعة التنجيم) . وكان للجاحظ فضله على الأدب والفلسفة معـا ، فرسائله واضحة الأسلوب غريزة المعنى لهـا مالها من الموضوع والشكل . وحتى رسالته فى الهجاء استطاع أن يجعل لها موضوعا علميا .

وعندما نسير هكذا مع الكتاب من صفحـة الى أخرى نجد العديد من الامثلة التى توضـح النزعة العلمية فى التراث ، العربى ، والميل الى التجديد والتحرر والايجاز والتعمق ، والنظام والجرأة فى الرأى ، والاخلاص للحق والشـك والتجربة . ومن علمـاء العرب من تميز فى أسلوبه بالتوفيق بين الشريعة والفلسفة ، كمـا فعل ابن رشد الذى اشتهر بالنقد . وقد اقتبس الغربيون من فلسفته ما حملهم على حل عقـال أفكارهم ، وفتح أمامهم أبواب البحث والمناقشة، وساعد على ذلك الشك والتجربة اللـذين نادى بهما نفر منهم كما يقول أبو هاشـم النصرى : (الشك ضرورى لكل معرفة) . أما من حيث الدستور الذى وضعه بعض العلماء العرب للبحث العلمى والفلسفى فقد وصفه فريق من العلماء بأنه أسلوب محكم رائع ، وربما كان وليد المنطق الذى ورثوه عن الاغريق ، أى أنه مسـتمد من أصل اغريقى قديم ، الا أنه بطبيعة الحال ليس فى ذلك ما ينقص من قدرهم العلمى ، فالعـالم دائما انما ينقل عن غيره ويزيد عليه ما استطاع الى ذلك سبيلا .

ونحن نعود لنؤكد مرة أخرى أنه وجد من بين علماء العرب من كشف عن عناصر الطريقة العلمية المعروفة الآن كما فعل ابن الهيثم فى علم البصريات ، الذى اذا ما عثرنا فيـه على بعض النقص أو العيوب فذلك أمر طبيعى فى البحث العلمى . أما من حيث التعريف بعلمائنا العرب كما جاء فى الكتاب فهذا أمر يطول شرحه ، ولسنا فى مقام سرد أعمالهم ، ألا أننا نكتفى هنا بسرد ما جاء على لسان بعض الفرنجة والمحققين العرب

١ - جابر ابن حيان : (... ان لجابر بن حيان

فى الكيمياء ما لأرسطو فى المنطق ...) ـ برتيلو ـ .

٢ ـ الكندى : (... الكندى من الاثنى عشر عبقريا الذين هم من الطراز الأول فى الذكاء) ـ كاردانو ـ .

٣ ـ البتانى : (... من العشرين فلكيا المشهورين فى العالم كله) ـ لالاند ـ .

٤ ـ ابن سينا : (... ابن سينا أعظم علماء الاسلام ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين ...) ـ سارطون ـ .

٥ ـ ابن الهيثم : (قلب الأوضاع القديمة ، وأنشأ علما جديدا أبطل فيه علم المناظر ، وأنشأ علم الضوء الحديث ، وان أثره فى الضوء لايقل عن أثر نيوتن فى الميكانيكا) ـ مصطفى نظيف ـ .

٦ ـ الغزالى : (... الغزالى أعجب شخصية فى تاريخ الاسلام ... ـ دى بور ـ .

٧ ـ الادريسى : (... ان كتاب الادريسى فى الجغرافيا أعظم وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى ...) ـ دائرة المعارف الفرنسية ـ .

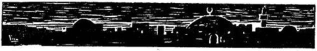
٨ ـ ابن رشد : (... ابن رشد فيلسوف متين متعمق ، صحح كثيرا من أغلاط الفكر الانسانى ، وأضاف الى ثمرات العقول ثروة قيمة لايستغنى عنها بسواها ...) ـ بيكون ـ

٩ ـ الخازن : (... ان كتاب ميزان الحكمة للخازن من أجل الكتب العلمية وأروع ما أنتجته القرائح فى القرون الوسطى ...) ـ سارطون ـ

١٠ ـ ابن خلدون : (... ابن خلدون فى المقدمة التى كتبها لتاريخه العام قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة التاريخ . وهى بلاشك أعظم عمل من نوعه خلقه أى عقل فى أى زمان ومكان ...) ـ توينبى ـ .

والنقد الوحيد الذى يمكن أن يوجه الى الكتاب هو الاسراف فى المدح دون ذكر النقائص وتفاصيلها . ولعلنا نلمس من تراثنا العلمى القديم جانبا من المزج بين فروع العلم والمعرفة المختلفة ، الى جانب ما للأوهام القديمة من أثر وعدم الفهرسة السهلة التى تجعلك تقف على ما تريد فى لحظات كما نفعل اليوم فى كتبنا العلمية .

الدكتور محمد جمال الدين الفندى



الشعر والتأمل

تأليف : روستريفور هاملتون

كان مؤلف هذا الكتاب أمينا حقا حينما قال فى أول عبارة له من مقدمة كتابه : « منذ فترة لا تزيد كثيرا على عامين خيل الى أنه لا بأس من أن أشتغل بنقد الشعر فى المجالات الأدبية وهى مهمة لم أضطلع بها من قبل ، لذلك أخذت ادرس المبادىء الاولية للنقد .. » ، ولكن أليس من المفزع حقا أن يبدأ انسان لا علاقة له بالنقد فى دراسة المبادىء الأولية فاذا هو بعد مضى عامين يؤلف كتابا فى النقد يحمل هذا العنوان الخطير « الشعر والتأمل » ؟ وليت الكتاب مع ذلك ينم على التواضع الخليق بمثل مؤلفه ؛ فهو يهاجم فى عنف وقسوة الناقد المشهور أ . أ . رتشاردز فى كتابه « مبادىء النقد الأدبى » ويسفه آراءه ، حتى ليخيل لقارىء الكتاب — حين يفرغ منه — أنه قرأ مقالا مسهبا فى نقد رتشاردز .

ولست أدعى أن رتشاردز فوق النقد ؛ فهو صاحب نظرية قد تقبل وقد ترفض ، ولكن ليس من العدالة أن يتسلق كاتب على كتفيه ثم يقصم ظهره . ورحم الله شاعرنا القديم حين قال :

أعلمه الرماية كل يوم
فلما اشتد ساعده رمانى

غير أن هاملتون — مؤلف الكتاب — لم يكن ساعده قد اشتد حين رمى رتشاردز بالجهل والخطأ ، ولكنها — للأسف — آفة الاشتغال بالنقد ؛ فما أيسر أن يقرأ انسان كتابين أو ثلاثة كتب فى « المبادىء الأولية » للنقد حتى ينصب نفسه ناقدا ومؤلفا فى النقد ، وحتى يقذف الرؤوس بالحجارة . وكان أولى بهاملتون أن يتريث كثيرا قبل أن يقدم على التأليف فى نظرية الشعر حتى تنضج فى نفسه الخبرتان التجريبية والتحصيلية على السواء .

لقد كان طموح هاملتون فى هذا الكتاب أكبر من قدرته ؛ فقد أوقع نفسه فى ميدان تلتقى فيه دراسات شتى ، جمالية ، ونفسية ، وخلقية ، واجتماعية ، فضلا على الخبرات الفردية الكثيرة فى هذا الميدان ، الناتجة عن التجربة العملية . ولهذا كان طبيعيا أن نجده كثير الاضطراب فى هذا الميدان الزاخر بالمعرفة والخبرة ، يريد أن يشق لنفسه فى هذا الزحام طريقا ولكنه ما يكاد يخطو خطوة حتى يتراجع خطوتين ، ويظل هكذا حتى اذا أجمل لنا فى النهاية وجهة نظره أحسسنا أنه يقدم الينا مسلمات أولية أو بدايات أفكار تحتاج الى متابعة وتعميق وتأصيل .

وبسبب هذا الاضطراب وعدم وضوح الرؤية وتسلسل الفكرة اكتسب الكتاب شيئا من الصعوبة ؛ فكثير من الفقرات ، بخاصة تلك التى يناقش فيها رتشاردز ، يصعب الخروج منها بفكرة أو رأى أو معنى واضح ، بل اننا لا ندرى فى بعض الأحوال أهو ينقض ما يقول به رتشاردز أم يأخذ به . وقد يخطر لنا هنا دور المترجم ، فنتوقع أن الترجمة ذاتها كان لها دخل فى هذا الاستغلاق ، وهذا شىء لا يمكن أن ننفيه ، وسوف نرى أمثلة تؤكده ؛ ولكن المؤكد كذلك أن المؤلف نفسه لم يكن واضحا فى تفكيره وفى مناقشاته الجزئية ، فى المادة التى بنى منها فصول الكتاب ، وان كان واضحا فى النتائج التى لخص بها الكتاب . وطبيعى أن وضوح النتائج لا يشفع لغموض المقدمات ، فربما كانت

ترجمة : الدكتور محمد مصطفى بدوى

مراجعة : الدكتورة سهير القلماوى

الناشر : المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعــة والنشر ، ٢٣٠ ص قطع متوسط . ث ٢٥ قرشا .

طريقة استخراج هــذه النتائج اهم لدينــا من النتائج ذاتها ، بخاصــة اذا كانت هذه النتائج ـ كما قلنا ـ لا تعدو أفكارا أولية فى النقد بعامة وفى نظرية الشعر بخاصة .

اننا نستطيع أن ندرك من تلك النتائج ـ على سبيل المثــال ـ أن موقف المؤلف من نظرية الشعر موقف جمالى صرف ، حــين يقول لنا « ان مركز الدراسة فى نظرية الشعر هو طبيعة التجربة الشعرية فى ذاتها ولذاتها » (ص ١٠٣) . ونجد فى الفصل الأول عبارته التى يشرح فيها هــذا المعنى حين يقول : « وقيم الشعر كغيره من الفنون الأخرى متميزة عن قيم الأخلاق ، كما هى متميزة عن قيم التفكير . وينبغى الحكم على الشعر من حيث هو شعر طبقا لنوع التجربة الخياليــة التى يمدنا بها فحسب ، ولا يجوز الحكم عليه بمعيار ما فيه من خير خلقى ، أو بمعيار صدقه بالنسبة لشىء يقع خارجــه » . (ص ١٩) هذا الموقف الجمالى الواضح سرعان ما يتزعزع ـ أو يبــدو أنه يتزعزع حينما نقرأ قول المؤلف (ص ٢١) : « ومن المسلم به حين يتوافر لدينــا احساس جاد بالقيم يصبح فى مقدورنا عادة أن نقبل من أجل التجربة الخيالية موقفا خلقيا أو دينيا خاصا يؤمن به الشاعر حقا ويعارض موقفنا كلية » . أتراه يعنى ان هذه القيم التى يؤمن بها الشاعر حقا لا دخل لها فى تجربته الجمالية ابتداء وانها قيم منفصلة ؟ هذا ما يعنيه المؤلف بعينه ، وهو عندئذ يجــد نفسه قد تورط فى مزلقين :

الأول : هو ضرورة أن تتم التجربة الشعرية بعيدا عن معتقدات الشاعر والقيم التى يؤمن بها ،



أو لنقل عن موقفه العام من الحياة ، ولا يستطيع احــد أن يتصور فى الواقع هــذا النوع من التجربة .

والثانى : هو أن نشتق معــايير الحكم على التجربة الشعرية من ذاتهــا ، وهو الأمر الذى فشل المؤلف نفســه فى الوصول اليه . وقولنا أن قيمة التجربة الشعرية كامنة فى ذاتها لا يعنى أن التجربة منفصلة عن الحيــاة بقوانينها . وما يقول به المؤلف بعد ذلك من اختلاف التجربة التأملية عن التجربة العادية لا يغير من حقيقة أن القيم التى توزن بها هــذه التجربة وتلك ليست قيما شكلية صرفا بمقدار ما هى قيم تتعلق بالمضمون .

ولهذا نجد المؤلف قد عاد فى نفس الصفحة يقول : « وبالاجمال فان طبيعــة معتقداتنا لها تأثيرها ـ ولن أقول لها تأثيرها الكبير ـ على مستوى تجربتنا . اما نوع تجربتنا فلن يتأثر فى شىء مهما يكن عقم نظريتنــا فى العالم ؛ فنحن سنظل ننتج ونستمتع بأشياء جميلة حتى حينما تكون نظريتنا فى الأخلاق والميتافيزيقا مجدبة . وفى الواقع أن مستوى الابداع والاستمتاع على السواء سينزع حينئذ الى الهبوط ، فقد نتردى فى هوة « الفن لأجل الفن » التى يقصر فيهــا الفن اهتمامه على القيم الحســية مجردة عن الحيــاة . ولكن حتى لو أصبحت التجربة الشعرية مقصورة على الكمال الشكلى السطحى الثانوى فانهــا ستظل حينئــذ من نوع متميز

من التجارب الأخرى ، باعتبارها متعة خيالية خاصة يولدها نظام معين للكلام ، ومن حيث انها كذلك تكون جديرة بالدراسة الخاصة التى ستقوم بها نظرية الشعر » .

وهكذا يضطرب المؤلف بين التسليم — الى حد ما — بأهمية القيم التى يؤمن بها الشاعر فى تكييف تجربتهالشعرية وبين التجربة الشعرية منفصلة تماما عن هذا النوع من القيم . وهو يبرر لنفسه هذا الاضطراب بحديثه عن « نوع التجربة » و « مستوى » التجربة ؛ وهو تمييز مفتعل ، وفصل بين شيئين غير منفصلين ؛ فليست نوعية التجربة كافية للحكم ، لأنها لا تتضمن التنويع اللانهائى الذى تشمله الأحكام النقدية ، وهى لذلك خارجة عن ميدان التقدير ، وانما يفتح الباب لهذا التقدير اعتبار مستوى التجربة الخيالية التى تقدمها القصيدة . وبعبارة موجزة نقول : اننا لا نستطيع أن نحكم على التجربة الا بمقدار ما تعطينا .

ويعود هذا الاتجاه الجمالى الشكلى الصرف مرة أخرى للاضطراب حين يتحدث المؤلف عن موضوعية الجمال فيرفض أن يكون الجمال موضوعيا ، فى حين أن القول بموضوعية الجمال هو القول الذى يتسق واتجاهه . فما دامت قيمة التجربة فى ذاتها ولذاتها ، وما دامت التجربة القاصرة على « الكمال الشكلى » ما تزال تجربة من نوع متميز من التجارب الأخرى باعتبارها متعة خيالية خاصة ؛ فالمفهوم عندئذ أن تكون القيمة الجمالية قائمة فى الشيء ذاته وليست قيمة خارجية نستكشفها فيه او نضفيها عليه ، أى أن يكون الجمال موضوعيا . ولكننا نجد المؤلف يتناقض مع نفسه حين يأخذ فى مناقشة رأى « ستيردج مور » الذى يقول : « ان الجمال لا يقل موضوعية عن الضوء ، وان كان اعجابنا به يتوقف على كمال ملكاتنا مثلما يتوقف ادراكنا للضوء على سلامة أعيننا » ؛ فهو يرد عليه بقوله : « ليس الضوء ولا الجمال موضوعين ، بمعنى أنهما موجودان من حيث هما ضوء أو جمال مستقلين عن الذات . وحين نصف الضوء بأنه موضوعى فاننا نقصد هذا المعنى المحدد ، وهو أن ادراكه لا يختلف من ذات الى أخرى ولكنه مشترك بين الذين لهم رؤية سليمة جميعا . **ولكن الجمال ليس موضوعيا حتى بهذا المدلول الضيق ،** وذلك لأن ادراكه يختلف من ذات الى أخرى وليس هناك فعلا عاملمشترك بين هذه الادراكات المتباينة » . (ص ٥٩) .

ثم يمضى المؤلف فى البرهنة على أن الجميل فى ذاته غير قائم . فالصورة الجميلة فى ذاتها غير موجودة ؛ « لأنه يستحيل أن توجد بهذا المعنى منفصلة عن علاقتها بذات واعية ... ومن الطبيعى أن يعتقد الناس عامة أن الصورة ببساطة موضوعية وذلك لأن الذات تبدو سلبية تماما ، وماعلى المرء الا أن يفتح عينيه لكى يراها ، ولكنه من الواضح أن الصورة ليست موضوعية بمعنى أنه من الممكن أن نستغنى فيها عن الذات » . (ص ٦١) .

وكل هذا الجدل يعنى فى وضوح أن المؤلف قد تراجع عن فكرته السابقة فى « الكمال الشكلى السطحى » بوصفه القيمة الثابتة للتجربة الخيالية حين تتحقق فى عمل فنى كالقصيدة مثلا ؛ فلم يعد « نوع » هذه التجربة كافيا ، لأنه لابد من ذوات مختلفة تتلقى هذه القصيدة أولا ، ولابد أن تختلف هذه الذوات فى مدى رؤيتها وتقديرها أخيرا . ولا أحسبه بهذا قد ذهب الى أبعد من النظرية التوفيقية بين الذات والموضوع فى ادراك الجمال . فهو يقف وسطا بين نظرية أفلوطين التى تقول : « ان النور ذاته يتلاشى اذا لم يوجد فى العالم سوى عميان » والنظرية الموضوعية التى تقول ان الصورة المعلقة على جدار أحد المتاحف ستظل هناك محتفظة بقيمتها الجمالية وان لم نبصرها أو أن نحن مررنا بها مر الكرام .

والحق لقد أجهد المؤلف نفسه — دون طائل — لكى يتخذ لنفسه موقفا وسطا غير الموقف المشهور ، فاذا هو يضطرب بين الموقف الجمالى الصرف وهذا الموقف الوسط بين موضوعية الجمال وذاتيته . وهو يصوغ هذا الموقف صياغة نهائية حين يقول : « ان الجمال فى

موضوع التجربة الجمالية ، فحينما تكتمل هذه التجربة ننسى أنفسنا ويكاد يختفى التمييز بين الذات والموضوع ، اذ نفقد ذاتنا فى الموضوع ونستمتع بنشوة التأمل (بالمعنى الدقيق لكلمة نشوة) بعيدا عن الفعل وبعيدا عن التفكير ، مهما أسرع التفكير والفعل فى أن يتبعا هذه التجربة » وان الموضوع الذى نتأمله ليس الا الثورة الحاضرة لشعورنا » . (ص ١٢٦ — ١٢٧) .

وكما يظهر الاضطراب فى الجانب النظرى من هذا الكتاب تتضح كذلك صورة منه عند الأمثلة التطبيقية . وسنقف عند مثال من دراسته العملية . فقد أورد عن (سيمونز) خبرا يقول ان (ارنست دوسون) يقر بان مثله الاعلى فى الشعر هو هذا البيت للشاعر الأمريكى (پو) "Poe"

The viol, the violet, and the vine

كما أنه كان يرى ، وهذا واضح من تفضيله لهذا البيت ، « ان الحرف « v » هو اجمل الحروف فى اللغة الانجليزية ، وانه لا يمكن للشاعر أن « يفرط فى استخدامه فى شعره » .

وواضح أن المؤلف يشايع هذا الرأى الذى يجعل لأحد حروف اللغة جمالا خاصا ، بل يجعله أجمل حروف اللغة ، أى أنه يتسق فى هذا مع وجهة النظر القائلة بموضوعية الجمال . ثم اذا هو يواجه رتشاردز اذ يقول : « لا توجد مقاطع أو حروف متحركة تتصف بطبيعتها بالحزن أو الفرح وان ذلك العدد الكبير من النقاد الذين حاولوا تحليل آثار القطع الأدبية الى ما تتألف منه من حروف ساكنة ومتحركة انما كانوا يقومون بعملية مسلية فحسب ... ولا يحدد الصوت ذاته طريقة تأثيره بقدر ما تحددها الظروف التى يدخل فيها هذا الصوت » (ص ٩٣ — ٩٤) وهو رأى يبدو لنا سليما ورصينا ، وهو يتمشى مع النظرية الجمالية المعقولة وهى أن الجزء فى ذاته لا يوصف بالجمال أو القبح ، وانما يحدد قيمة وصفه ودوره فى السياق العام . ولكننا نجد المؤلف وقد ووجه بهذا الرأى السديد يحتال للوقوف الى جانب الرأى الأول ونقض رأى رتشاردز فيقول : « ويبدو لنا جليا أنه اذا عدنا الى بيت (پو) استطعنا أن نحصل على تجربة جمالية منه ، تجربة يحتل فيها الصوت مكان الصدارة فى اهتمامنا . وليست الصورة البصرية أو الايحاءات التى تقع فى مؤخرة التجربة بحيث أنها ستؤثر كثيرا (كذا) فى طريقة تأثرنا بالصوت أو ستزعجنا وتشتت اهتمامنا وتحوله بعيدا عنها . وحينما ينسق الاهتمام غير الجمالى تجربتنا نستطيع أن ندرك على انفصال تكرار الحرف « V » ، الا أننا لا نستطيع أن ننتقل من ادراكنا العقلى للحرف « V » الى تذوقنا الجمالى له ؛ فلا يوجد حرف ساكن « جميل » أو حرف متحرك « فرح » منفردا . وبهذا المعنى نجد أن الدكتور مصيب فى قوله وأن ملاحظته لها قيمتها . ومع ذلك فحينما نقارن بيت (پو) بأبيات أخرى تتميز بغلبة الحرف « V » فمن المرجح أننا سنتفق على ان هذا الحرف له قيمة خاصة باعتباره عنصرا من العناصر التى يتألف منها صوت الشعر ، وانه على نفس المنوال توجد حروف متحركة أو مقاطع معينة يبدو أنها وان تكن فرحة فى ذاتها يسهل ادخال الفرح فيها عن غيرها » . (ص ٩٥) .

ففى هذا المثال التطبيقى يتضح لنا مرة أخرى كيف أن المؤلف يشايع القول بأن الجمال خاصية فى الشىء ذاته ، وأن استمتاعنا بالشىء الجميل يرجع الى تلقينا المباشر له من حيث هو ، دون دخول أى نوع آخر من الاهتمام ، سواء أكان عقليا أم خلقيا . وهو اذ يتفق مع رتشاردز فى رأيه لا يصنع ذلك الا ليعود الى نقضه دون اى مناقشة مقنعة .

ولكى يتسق المؤلف مع نفسه نجده يذهب الى أن الشاعر لا يقدم الينا تجربة واضحة فى نفسه أو معروفة له ؛ فهو حين يبدع يصنع شيئا آخر مخالفا تماما لتجربته الأولى . ان القصيدة — عنده — تجربة جديدة دائما ، حتى بالنسبة للشاعر نفسه . وبناء على هذا يكون من العبث أن نحكم على القصيدة بشىء وراءها نفترضه ، بشىء وراء الألفاظ وتنسيقها الخاص فى القصيدة .

والمؤلف يصنع هـــذه المقدمات لكي يصل مسألة جوهرية في الفن بعـــامة ، وهي مسألة توصيل التجربة . أيقصد الشاعر حقا ان يوصل الينا تجربة بعينهـــا حين يقدم الينا قصيدته ؟ يقول المؤلف « من الأجـدى ألا نعتبر الشاعر موصلا وانما نعتبره خالقا ؛ فهو حينما ينجح في خلق شيء لنفســـه لا داعي له لأن يقلق على الايصال ، اذ ان قصيدته تصبح حينئذ ايصالا بالضرورة ، بمعنى أنهـــا توفر للقـــراء الذين لا تختلف أذهانهم في تركيبهـــا اختلافا شاسعا عن ذهنه ، تجربة **جديدة** قيمة تشبه الى حد ما التجربة الجديدة القيمة التي يعطيهـــــا لهم » . (ص ١٧٧) .

وخلاصة هذا القول أن الشاعر لا يخلق لأحد وانما هو يخلق لنفسه ، وهو لا يريد أن يوصل أي نوع من الخبرة سوى الخبرة الجمالية الماثلة في كمال الشكل الفني الذي ينجزه . وهي فكرة هزيلة تثبت التجربة عكســـها ؛ فقـــد أحس الشعراء على الدوام أنهم أفراد في جماعة وأنهم يبدعون من أجل هذه الجماعة . وليس الشعر مجرد خبرة جمالية وانما هـــو كذلك خبرة انسانية . ولا أحسب كبار الشعراء يريدون — ولا نحن — أن نكتفي بتأمل الشـــكل الجميل الذي يقدمونه الينا ؛ فالمؤكد أنهم كانوا دائما يعبرون عن موقفهم من الحياة وفهمهم للانسان ، وهم من خلال عملهم الفني يفتحون لنا النوافذ التي نطل منها على جوانب شتى من الحقيقة ونحن حين نتأمل القصيدة — حتى عندما يكون هدفنا هو مجرد التذوق لا التقدير والحكم — فاننا نتأمل فيها الخبرة الانسانية ، والرعشة التي تسري في أوصـالنا عندئذ ليست نتيجة الاطار الجمالي الصرف . ومن ثم فاننا لا يمكن ان نستريح لقول المؤلف : « مهما كانت طبيعة الشيء الذي تتضمنه أو لا تتضمنه هذه التجربة فان غاية الشعر الحقيقيةالخاصة به هي التجربة لذاتها لا من أجل ما تتضمنه » . (ص ١٨٤) فالفصل بين التجربة وما تتضمـــنه فصـــل متعسف لا يمكننا أن نتصـــوره أو نمارســـه ممارسة عملية .

***

وبعد فقد آن الأوان لأن نقف — كما وعدنا — عند الترجمة ؛ فقد ساعد اضطراب الترجمة في بعض الأحيان على اضطراب الكتاب . وفيما يلي بعض الأمثلة :

١ — (ص ٦) : لذلك اخذت أدرس المبادىء الأوليـــة للنقد ، **ولا سيما على ضـــوء** النظريات الحديثة . والصواب ... بخاصة في ضوء .

٢ — (ص ٢٩) : الا أن هـــــذه الكلمة **الأوســـع « دافـــع » والتي** ســــتقابلنا ... والصواب : الا أن كلمة « دافع » هذه الأوسع نطاقا من غيرها ، والتي ..

٣ — (ص ١٥٥) : يبدو لنـــا أن الدكتور رتشاردز متسرع في حكمه **على** خطل برادلي . وجود (على) في هذا النص يؤكد وجود الخطل قبل الحكم ، في حين ان المؤلف يشايع برادلي ويود الدفاع عنه ونفي ما رماه رتشاردز به من خطل . ولهذا فالصواب هو : ... متسرع في حكمه بخطل ...

٤ — (ص ٨) : وهو كتاب له اهميـــــة **غير عادية** ... والصواب : أهمية فائقة .

٥ — الكلمة « ase » ، والصواب بوصفه . انظر ص ٢٢ — ٣١ .

٦ — استخدام كلمة (يعتبر) ترجمة الكلمة Consider ، والصواب بعد .

٧ — (ص ٢٤) : وكما يحـــذرنا الدكتور رتشاردز قد نتهاون ونفسر .. والصـــــواب — تحاشيا لهذا الاضطراب — هو : وقد نتهاون — وهـــذا ما يحذرنا منـــه الدكتور رتشاردز ونفسر ..

٨ — (ص ٢٨) : كان **ولن** يزال ، والصواب : ولا يزال ..

٩ — (ص ٣٣) : فهـــل الســـيكلوجيا أو بالأحرى **أن** نقول هل الفسيولوجيا .. فالصواب أن نقول : فهل الســـيكلوجيا ، أو بالأحرى هل الفسيولوجيا ... أو ان نقول : فهل السيكلوجيا ، أو الأحرى أن نقول هل ..

١٠ — (ص ٣٥) : ... بل **ولا** ... ، الواو زائدة .

١١ ـ (ص ٦٧) : ترجمة كلمة ode بكلمة نشيد . وال ode قصيدة غنائية تزاوج بين العاطفة والفكر ، والأحرى أن تترجم هنا بكلمة انشودة . انظر ايضا ص ١٥٨ .

١٢ ـ (ص ٧١) : الشيء **الهام** ، والصواب : المهم . انظر ايضا ص ١٢٧ ـ ١٣٤ ـ ١٣٩ .

١٣ ـ (ص ٨٦) : يعطونه للغير ، والصواب : لغيرهم .

١٤ ـ استخدام (طالما) فى غير معناها ؛ فهى تعنى (كثر ما) ، والصواب : ما دام . ص ٩٢ ـ ١١٤ ـ ١٨٨ .

١٥ ـ (١٠٧) : نجد أن هاتين الصفتين تفسران الى حد ما **لماذا** كان التأمل ميسورا عند الشرقيين . والصواب : ... تفسران السبب فى أن التأمل ميسور ..

١٦ ـ (ص ١١٨) : ولذلك فربما من جهة الأولوية الزمنية ليست التجربة الجمالية ... والصواب : ولذلك فربما لا تكون التجربة الجمالية ـ من جهة الأولوية الزمنية ـ ...

١٧ ـ (ص ١٣٦) استخدام كلمة (العديد) والمقصود هو (الكثير) ؛ فالعديد لا يعطى معنى الكثرة .

١٨ ـ (ص ١٥٤) : الملاح **الغابر** The Ancient Marinet وفى ص ١٦٠ الملاح **العتيق** .

١٩ ـ (ص ١٨٤ ـ ٥) : ولكن لنتخيل مقدار الحقائق المتناقضة التى كان سيجب علينا أن نجابهها لو ... والصواب : ... التى كان من المحتم علينا مواجهتها لو ...

٢٠ ـ (ص ١٨٧) : ولما كانت هذه الحاجات البشرية ملحة ومقيدة لذلك لن نستطيع أن نمسها بسهولة ... فضياع الترقيم فى هذه العبارة يشتت المعنى ؛ فنحن فى حاجة الى أن نضيف (فاء) اما الى (لذلك) أو الى (لن) ، ويتبع هذا أن نضع فاصلة قبل لذلك أو بعدها .

٢١ ـ (ص ١٩١) : آه يا وردنورث اننا لا نستقبل الا ما نعطيه .

وفى حياتنا وحدها تحيا الطبيعة .

ان ثياب عرسها هى ثياب عرسنا ، وأكفانها هى أكفاننا .

واعتقد أن الترجمة تكون أدق لو أننا قلنا :

آه يا وليام ! اننا لا نستقبل الا ما نعطى .

وفى حياتنا وحدها تحيا الطبيعة .

وحلة العرس التى ترتديها هى من صنعنا ، ومن صنعنا كفنها .

وفى هذا توضيح للمعنى الذى يقصده الشاعر ، وهو أننا نحن الذين نضفى على الطبيعة المعنى .

وبعد فقد سعدت برحلتى مع هذا الكتاب وان لم أتمتع به .

الدكتور عز الدين اسماعيل

• • •

دون جوان

تأليف : موليير

ليس من شـــك فى أن « الادارة العـــامة للثقافة » حين فكرت فى اصدار سلسلة « روائع المسرح العالمى » كانت تهدف الى خدمة القراء وكتاب المسرح ورجاله على السواء ، أى ان هذا الهدف ذو طابعين ثقافيين : هما الطابع الأدبى والطابع المسرحى . فكتب هذه السلسلة لا ترمى فحسب الى امتـــاع القارىء ، وانما أيضا الى اطلاعه على نماذج من المسرحيات العالميـــة من شأنها أن تحضـــه على عقد المقارنة بين روائع المسرح الغربى وبين ما يقدمه اليه المسرح المحلى ؛ الأمر الذى يخلق أو يصـــقل لديه ملكة النقد ، ويضاعف طموح آماله من أجل نهضتنا المسرحية المعاصرة .. ثم ان هـــذه النماذج — من ناحية اخرى — تبصر كتابنـــا المسرحيين « بالكيف » الذى ينبغى عليهم أن يحاولوا تحقيقه .. وبديهى أن تنميـــة ذوق القـــارىء ، وصقل استعداد الموهوبين فعلا من كتابنا المسرحيين يؤديان حتما الى الارتقاء بالمادة التى تقدم الى مسارحنا ..

فمن المؤكـــد — مثـــلا — أن معظم مسرحياتنا الكوميـــدية الحالية لا تنتمى الى الكوميـــديا الحقيقيـــة بقـــدر ما هى مسرحيات هزلية أو "Farce" كما يقول الفرنســـيون . واذا كنا لا نفتقر الى الممثل الناجح فاننا لا نزال فقراء الكتاب المسرح الذين يمكن أن نقول عنهم أنهم لا يستخفون بعقول النـــاس برداءة المادة التى يدفعون بهـــا من أجله الى المسرح .. سلسلة « روائع المسرح العـــالمى » اذن تسهم اسهاما فعالا فى نهضتنا الأدبية والمسرحية .

وطبيعى أن تأخذ سبع أو ثمان من مسرحيات موليير أمكنتها فى « بهو » هـــذه السلســـلة الطويل .. صحيح أن مسرحية « دون چوان » ليست من أروع ما كتب موليير (وانا اقارن هنا موليير صاحب « المتزمت » أو « البخيل » أو « النساء العالمات » .. بموليير كاتب مسرحيـــة « دون چوان » ، فهذه الأخيرة جيدة فى ذاتها من غير شك) ولكنها هامة على كل حال بسبب الظروف التى كتبت فيها ؛ تلك الظروف التى يتطرق الحديث عنها بالضرورة الى كفاح موليير فى سبيل فرض فنه الأصيل رغما عن مناهضـــة طبقتى الاســـتقراطية ورجال الدين . انها من حيث الصـــدى الذى أحـــدثته امتداد لمسرحية « طرطوف » (Tartuffe) .

لم تكد مسرحية « طرطـــوف » تمثـــل أمام لويس الرابع عشر فى قصر فرســـاى (١٢ مايو ١٦٦٤) حتى أثارت حفيظة رجال الدين ، كما أغضبـــت الملكة الأم آن النمســـاوية - Anne d'Autriche ، التى استغلت حاشيتها ضـــد موليير . وبالرغم من أن الملك كان راضيا عن هذه المسرحية فقـــد نصح الكاتب « بعدم اغضاب المتدينين » اثر تدخل كبير أســـاقفة باريس . وحظر تمثيل المسرحية أمام الجمهور ، وتعرض

ترجمة إدوار ميخائيل
مراجعة فتوح نشاطي ونبيل الألفي

الناشر : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٤٩ ص ، قطع صغير .

موليير لهجوم احمق ، فوصفه احد رجال الدين بأنه « شيطان مجسد يرتدى زى انسان » ، ونادى بحرقه حيا « كجزاء دنيوى ريثما يذوق عذاب جهنم » ·· وظلت « طرطوف » تعيش فى الخفاء : تمثل فى قصر شقيق الملك أو فى غيره من قصور بعض أعضـاء الأسرة المالكة .. ثم مثلت أمام الجمهور باسم جديد « المنافق » (٥ أغسطس ١٦٦٧) باذن شفوى منحه الملك قبل سفره لحرب الفلاندر ، ولـكنها حظرت من جديد فى اليوم التـالى بأمر من رئيس البرلمان لاموانيون (Lamoignon) الذى قال لموليير حين ظفر بمقابلته بفضل صديقهما المشترك بواليو (Boileau) انه يرى أن المسرحية رائعة ، ولكن لا يليق بالممثلين أن يلقنوا الناس مبادىء الدين وليس من حق المسرح أن ينشر الانجيل ! ولذلك فليس فى وسعه أن يأذن باعادة تمثيلها فى غيبة الملك .. وجن جنون موليير وأبى أن يرضـخ للأمر الواقع ، فبعث الى الملك ــ الذى كان فى معركة الفاندر ــ برسولين يحملان اليه التماسا جديدا (كان الأول فى اغسطس ١٦٦٤) ، الا ان قلق لويس الرابع عشر بسبب عنف حملة الهجوم على موليير حدا به الى أرجاء حسم المشكلة حتى يرجع الى باريس .. ثم فجـأة (سبتمبر ١٦٦٨) قرر الملك رفع الحظر عن « طرطوف » فكان استـئناف تمثيلها (٥ فبراير ١٦٦٩) نصرا حقيقيا لموليير والمسرح على السواء . وهكذا استمر كفاح موليير قرابة خمسة أعوام من أجل مسرحية كل ذنبها أنها تصدت لنفاق من يتظـاهرون بالتـدين : يقـول بوردالو (Bourdaloue) فى خطبـة دينيـة له عن « النفـاق » : « ان التـدين الحق والتدين الزائف يتشابهان من حيث الشكل الخارجى ، ولذا فان التنديد بهذا يسىء حتما الى ذاك » .

والصلة وثيقة بين محنة « طرطوف » وكتابه « دون جوان » ، بل ان بينهما قرابة معنوية . لقد كادت تلك المحنة أن تقضى على كيان فرقة موليير (كانت تسمى « فرقة شقيق الملك » فى ذلك الوقت) فقد كانت اضطرت خـلال سنة كاملة الى تمثيل مسرحيتين اثنتين احـداهما تراجيديا لراسين . وكان لابد من تقـديم شىء جديد الى الجمهور .. صحيح كان موليير قد شرع فى كتابة « المتزمت » (Le misanthrope) ولكن بخطى وئيدة لأنها كانت أقيم من أن يرتجل تتمتها . هنا الح عليه أعضاء فرقته فى الاسراع بكتابة أسطورة دون جوان بطريقته الخاصة حتى تستطيع هـذه الفرقة أن ترسخ فى منافستها لفرقة الايطاليين ، وهم الذين أحرزوا نجـاحا فائقا بتمثيلها . على أن هناك أسبابا قوية أخرى دفعت موليير الى كتابة « دون جوان » ، وأول هذه الأسباب ما شعر به من مرارة عاصفة أثر حظر تمثيل « طرطوف » . يقال انه فكر حينذاك فى العـدول عن الكتابة والتمثيل ، ويقال انه أسدى ــ حينذاك أيضا ــ الى شاب يطمح الى مزاولة مهنـة المسرح نصيحته المعروفة التى تهـدف الى انتزاع مشروعه من ذهنه : « ربما تظن ان لهذه المهنـة مفاتنها ؛ انك مخطىء .. حقا اننـا نبدو مقربين من الأشراف ، ولـكنهم يخضعوننا لملذاتهم ·· أما بقية الناس فتنظر الينـا نظرتها الى أشخاص ضائعين يثيرون

احتقارها ... » وتفاقمت حال موليير الى حد اليـأس ثم استحالت الى ثورة عارمة أراد ان ينفس عنها بثأر مزدوج : الانتقـام من رجال الدين بمسرحية ظـاهرها التـكفير عن « اثم » قديم ، باطنها هجاء جديد مقنع ... والانتقـام من الارستقراطيين المتعطلين الذين يأتون جميع الموبقات ، ولا يتورعون عن اغواء زوجات الطبقة البرجوازية وفتياتها ، أمثال كونت دى جيش (de Guiche) ، الذى كان لا يكف عن مغازلة زوجته ! .

وموضوع « دون چـوان » بسيط لا تعقيد فيه ؛ وهو يدور حـول أفعال وآراء شاب من الاشراف فاسـق ، فظ ، ينـكر جميع القيم الانسانية ويجـد لذة فى الهرطقـة ... ثم يجد جزاءه المحتوم : حدث ذات يوم أن كان فى غاية بصـحبة خادمه سجاناريل (Sganarelle) وتقدم من قبر الحـاكم الذى كان قد قتله منذ ستة اشهر ، فانفتح القبر ، وظهر تمثال الحاكم ؛ واذا دون چوان يدعوه — بدافع من التحـدى — الى تناول العشاء معـه .. ويحضر التمثال الوليمة ، ثم يدعو الفاسق بدوره .. ويحضر دون چـوان حيث كان ينتظره غضب السماء الحانق على جرائمه : الصـاعقة تنزل بعنف مدو ، والبرق يتتابع بشكل رهيب ، والأرض تنشق لتبتلعه وهو يلتهب بألسنة النيران .

وهذا الموضـوع مستمد من أسطورة قديمة يرجع أصلها الى مسرحية اسبانية مثلت حوالى عـام ١٦٢٠ اسـمها « خادع أشـبيليه » (Trompeur de seville) لتيرسو دى مولينـا (Tirso de Molina) واسمه الحقيقى (Gabriel Tallez) .. وقـد دخلت هـذه الأسطورة ايطاليا بفضل جيلبرت (Gilberto) وسيكونينى (Cicognini) .. ثم مثلتهـا فى باريس بنجـاح كبـير فرقة لوكاتيللى (Locatelli) وفى عام ١٦٥٨ نشر الممثل الفرنسى Dorimond فى ليون اقتباسا من مسرحية چيلبرتو .. وفى العام التالى مثل Villiers فى مسرح بورجنى (Bourigogne) اقتباسا جديدا (نشره فى عام ١٦٦٠) .. ويبـدو ان موليير قد اطلع على سـيناريو لوكاتيللى ، ومسرحية سيكونينى ، والمسرحيتين الفرنسيتين المقتبستين (عنوانهما واحد هو « وليمـة التمثال أو الابن المجرم » (Le Festin de pierre ou le fils criminel) (١)

أتم موليير كتـابة مسرحيته دون چوان فى فى أوائل فبراير ١٦٦٥ ، واستطاع أن يقدمها للجمهور فى ١٥ فبراير بمسرح الباليـه روايال (Palais - Royal) وبلغ بنجاحها انها كانت تغل ايرادا يوميا يبلغ قرابة ألفين من الجنيهات ؛ بل ان هذا الايراد وصل الى ٢٣٩٠ جنيهـا فى اليوم العاشر من بدء تمثيلها . الا أنهـا حركت ضغائن أعدائه الذين وقفوا — بالرغم من عطف الملك — فى انتزاع اذن بحظر تمثيلهـا بعد أن قدمت خمس عشرة مرة (٢٠ مارس ١٦٦٥) .

اتهم محام بالبرلمان موليير بالالحاد فى كتيب أحرز نجـاحا كبـيرا اذ طبـع خمس مرات (اسـمه : ملاحظـات على كوميديـا موليير المسـماة وليمـة التمثـال) ، وزعم أن المسرح بسببه متمرد على الكنيسة ، وان موليير يستحق الاعـدام (يقـال ان باربييه دوكور Barbier d' Aucour هو صاحب ذلك الأسم المستعار (Rochemout) .. وارتفعت من الكنائس صـيحات رجال الدين الذين نددوا بمسرحية موليير بوصفها مظهرا جديدا لكفره . وفطنت الطبقة الارستقراطية الفاسقة المستغلة الى أنها هى الأخرى مقصودة بالهجاء ... ودلل جميع أعداء موليير على سوء نية موليير باختياره سجاناريل (Sganarelle) مدافعا عن الدين : لأن خادم دون چوان هـذا تافه العقليـة ، ضعيف الحجـة ، جبان ؛ يقول امير كونتى : « ان موليير قد عهد بقضية الله الى خادم يطلق لسانه بشتى السفاهات » والغريب أن موليير لم يبذل هذه المرة أى جهد من أجل استئناف

(١) انظر الدراسة القيمـة التى قدم بها لترجمة المسرحية الفنان الموهوب نبيل الألفى .

تمثيل مسرحيته ؛ لعل شعوره بأنه أشبع رغبته فى الانتقام كان كافيا لاراحة أعصابه ! .

ولقـــد شجع موليـير على نشر مسرحيته ما حققته فى البداية من نجاح ، فحصل على اذن بطبعهـا قبل منع تمثيلها بعشرة أيام ؛ الا أن قرار الحظر لم يكن من شأنه ان يطمئن الناشر ، فظلت محفوظة الى أن تكفـل ڤينو (Vinot) ولاجرانج (La Grange) - بعد وفاة موليير - بطبعها فى عام ١٦٨٢ بعـد ان حذفا منها أجزاء كثيرة ... ولم تنشر غير منقحة الا فى عام ١٨١٩ (نشرها اوچيــه Auger) ، وان كـانت قد ظهرت فى طبعات مزيفة ببلجيكا (١٦٨٢) وهولندة (١٦٨٣ ، ١٦٩٤) .

ومسرحية دون چوان عمل فجائى مرتجل ؛ تعجل موليير فى كتابتها ، وفى ظروف قاسية : ظروف حياته الزوجية ، وظروف فرقته على السواء . صحيح أنه ينقصها التماسك فى بعض أجزائها ، ولـكنها تضم أجـزاء رائعة على كل حال . انها دراسة سيكولوچية عميقة ؛ حتى الشخصيات الثـانوية (مثلا شارلوت وبيرو) لها من الملامح ما يدل على عمق موليير فى تحليل العواطف والانفعالات الانسانية .

وهو لا يتقيـد فيها بالقواعد الـكلاسيكية : فيها دراسة شـخصيات ، وفيهـا مزيج من الكوميديا الجاده والتراچيديا ، فضلا عن انها لا تخلو من العبـارات الهزلية .. ولم يحدد الـكاتب زمن الحـوادث التى تدور فيهـــا لينسينا انه لا يلتزم بوحدة الزمان (٢٤ ساعة) كما أنه لا يطبق قاعدة وحدة المكان ؛ نعم ان حوادثها تدور كلها فى صقلية ، ولكن فى أماكن مختلفة .. أما وحدة الحركة فهى غير واضحة المعـالم . والهـدف من هذه المسرحية لا هو امتداح الدين ، ولا هو الثناء على الألحاد ، وانما هو - كما قلنا - الثأر لمسرحية « طرطوف » التى قاست طويلا من عنت المناهضين ؛ من هنا نجد فيها ان موليير - على حد قول أحـد النقاد - قد غمس قلمه فى مداد ملتهب ، وان بعض عباراته تصطبغ على الورق بلون أحمر ! .

اسمع بعض ما يقوله عن النفاق على لسان دون چوان : « ان النفـاق رذيلة شائعة ، وجميع الرذائل الشائعة تعتبر فضائل ... لقد صار للنفاق اليوم مزايا عجيبة ... انه رذيلة ممتازة تكمم بيدها أفواه الناس جميعا وتأمن من العقاب فى طمأنينة .. » .

لعل القارىء قد أدرك الآن أن مسرحية كهذه من مسرحيات موليير حقيقة فعلا بأن تنقل الى اللغة العربية ؛ ومن أجدر بالترجمة من موليير ! قيام الأستاذ ادوار ميخائيل بهذه المهمة يستحق اذن الثناء . على انه كان بودى أن أختتم مقالى بهذه الكلمات ؛ الا أننا فى نهضة أدبية ومسرحية كبرى كما قلت فى مستهل هذا البحث الموجز ، وليس أخطر على النهضـات من النفــاق ، أو المجاملة وهى بدورها ضرب من النفاق أيضا . ان النقد البناء احدى دعامات الانتاج المثمر ، يدل فى غير تضليل ، ويوجه فى غير هوى ، ويسعى الى التقريب من الـكمال ... ليسمح لى اذن الأستاذ ادوار ميخائيل ان أقول له انه لم يتأن فى ترجمته ، وان أقول للقراء ان هذه الترجمة ليست فى المستوى اللائق بموليير . انها تزخر بالأخطاء ، وتتميز فى كثير من عباراتها بالركاكة . نعم ان صاحب مسرحية دون چوان لم يكتب دائما بأسلوب رصين لأنه كان يعير كل شخصية من شخصياته الأسلوب الذى يلائم ثقافتهـــا ومستواها الاجتماعى ؛ ولـكنى أشـك فى أن يكون المترجم . قد اقتدى به فى هذا المجال .. وهو لن يزعم انه توخى فى ترجمتـه أن تجىء صالحة للتمثيل فى مســارحنا ! لأن مؤسسة التاليف والترجمة شىء ، والمسرح شىء آخر . المؤسسة تحرص على الترجمة الأمينـــة التى تحافظ على سـلامة النص ، والمسرح من حقه - أو على الأقل يستطيع - أن يدخل على هذا النص ما تفرضه بيئتنا من تعديلات .. بل حتى هذا أشك فى مشروعيته ! .

المهم هو أننى سـأقصر تعليقى على منظر واحد من كلٍ من فصول المسرحية الخمسة :

اولا : (المنظر الأول من الفصل الأول) : ان تعبير « et l'on apprend avec lui à devenir honnête homme » ليس معناه « ... ويعلمهم الكرم » ! لقد كتبت مسرحية دون چوان فى زمن (القرن السابع عشر) كانت فيه لكلمتى honnête homme مدلولات كثيرة ، منها « انسان فاضل » أو « انسان مجامل » ، ولكن لم يكن من بينها معنى الكرم على كل حال ... وحين يقول « سجاناريل » « لجسمان » فى حديثه : « mon ami » ليس من حق المترجم أن يتدخل فى شئونه الخاصة فيحرف قوله لأن الصداقة العادية لا تكفيه ، وانما هو يريد منه أن يقول : « يا صديقى العزيز » ... وعبارة « protestations ardentes » ، التى يترجمها الأستاذ ادوار : « مظاهرات الحب الملتهبة » ؛ . الا تذكر كلمة « مظاهرات » فيها بالتصفيق والهتاف والصياح ؟! .. ويقول المترجم : « ... ولا استطيع أن افهم كيف أنه بعد كل هذا الحب ، وبعد كل هذا التهافت ... وكل ما ابداه نحوها من الدفاع » ؛ ما معنى هذا ؟ وأين وجد كلمة « دفاع » فى النص الفرنسى ؟ .. ونقرأ فى النص الفرنسى هذا الحكم الذى يصدره سجاناريل على سيده دون چوان :

« . . Don Juan mon Maître, le plus grand scélerat que la terre ait jamais porté, un enragé, un chien, au diable, un turc, un hérétique .. etc»

ويبدو أن المترجم قد اغفل ترجمة لفظ turc بدافع من الذوق والمجاملة ، الا انه قد فاته أن لفظ « تركى » هنا مستعمل فى المعنى المجازى ، اى أنه يعبر عن القسوة او الفظاظة ..

ثم هل تبيح اللغة العربية أن يقال « يخلف فى وعده » ؟ أو « اننى رحلت من قبله » ؟ .. أو « لقد اعترفت لك بهذا الاعتراف » ..

وهل يمكن أن نقرأ هذه العبارة : « لم يستطع كما تقول الا ان يجبرها ، على ان تأتى الى هنا جريا وراءه » .. دون أن نتصور الفير وقد سعت وراء دون چوان **عدوا** ؟ .. وهل يسمح النحو العربى بأن يقال : « ولكن دعنى **اقل** لك هذا » ؟ .. وحين يقول سجاناريل ما معناه « ولو قلت لك أسماء من تزوجهن فى جهات متفرقة ... » هل نستطيع أن نفهم فى غير التباس ما يعنى اذا قرأنا قوله فى هذه الترجمة « ولو قلت لك أسماء من تزوجهن فى **مختلف النواحى** » ؟ ثم تعابير كهذه ، أيليق أن ترد فى ترجمة لاحدى المسرحيات العالمية : « ان عواطفه قد تبدلت **من جهة** دونا الفيرا » .. « وهو لا يستخدم الا هذه الطريقة **لصيد** النساء » .. « **علما بأن** هذا كله ما هو الا صورة سريعة لشخصيته » ..

ثانيا : (المنظر الثالث من الفصل الثانى) : يصفع دون چوان الفلاح بييرو أربع مرات ، ولكن الأستاذ ادوار ميخائيل يشفق على الخادم المسكين أو يشفق علينا نحن من تصور تلك القسوة فيجعل عدد الصفعات اثنتين لا اربع !

ويقول بييرو لخطيبته شارلوت : J'aime mieux te voir crevée que de te voir à un autre » ومعنى هذا من سياق الحديث أنه يفضل أن تهلك (أن تموت) عن أن يراها زوجة لشخص آخر ... الا أن مترجم المسرحية يشوه هذا المعنى ، ويذهب فى تصوره الى أبعد مما يتصوره بييرو .. انه يحدد بالدقة طريقة الموت التى يجب أن يفضلها بييرو لخطيبته ان هى استجابت لاغواء غيره ! ، يقول : « ... أفضل أن أراك مشنوقة على أن اراك مع غيرى » ! ... ويقول بييرو لدون چوان الذى يريد أن يعتدى عليه

بالضرب : «أنا لايهمني شيء» ، فيرد عليه قائلا : "Voyons cela" ومعنى هذه العبـــارة « لنرى ذلك » ، الا أن الأستاذ ادوار ميخائيل يترجمها « جرب ذلك » ! فماذا عسى بيرو أن يجربه ؟ ان دون جوان لم يدركه بعـــد ، وهو ـ كما يقول النص الفرنسي ـ يجرى وراءه للحاق به ؟ .

ثالثا : (المنظر الثاني من الفصل الثالث) : يقول الشحاذ لدون جوان وخادمه وهو يحذرهما من اللصوص المنتشرين في الغابة التي ســيمران بها وهما في طريقهما الى المدينة :

"...depuis quelques temps, il y a des voleurs ici autour" ، أي منـــذ فترة واللصـــوص منتشرون حـــول هـــذا المكان ... ما طـــول هـــذه الفترة ؟ لا ندري ... ولـكن مترجـم المسرحية يتطوع بتحديدها فيقول : « ... لأنه يوجد بعض اللصوص قد انتشروا هنـــا وهناك منذ عشرة أيام » ! هذا التحديد ليس من حق من يحرص على الأمانة في الترجمـــة ... وبعد أن يتلقى الشحاذ شكر دون جوان على ما أسدى اليه من نصيحة ، يلتمس منـــه الاحســـان "Si vous vouliez, Monsieur, me Secourir de quelque aumône"

ومعنى هذه العبارة ببساطة «هل لك ياسيدى أن تعينني بصـدقة » .. ولكن الأستاذ ادوار يترجمها هكذا : «ان اردت يا سيدى انتساعدني ببعض الاحســـان ؟ » !! .. ويترجم تعبير "prier Dieu" الذي يـرد عـــدة مـــرات في النص ب « يصلى لتمنح السماء ... » وكنت أفضل أن تكون الترجمة « ادعو السماء أو ادعو الله » ... ثم هل يستطيع أن يكتب العبـــارة التالية أكثر من مرة دون أن يسيء الى اللغـــة العربية : « أعطيه لك » ؟ .. وينتهي الحديث بين الشحاذ ودون جوان الذى يلمح في الغابة مشاجرة غير متكافئة بين رجل وثلاثة آخرين ، ويختتم موليير هذا المنظر بهذه العبارة الانتقالية التي يضعها بين قوسين : "Il court au lieu du combat" ومعـــناها « ويسرع الى مكان المشاجرة » .. ولكن المترجم يملأ قوسيه بكلمة واحدة لا تمهـــد القارىء للمنظر التالي هي : (ويخرج) ! .

رابعـا : (المنظر الأول من الفصل الرابع) : يقول دون جوان في هذا المنظر القصير :

"... et nous pouvons avoir été trompés par un faux jour, ou surpris de quelque vapeur que nous ait troublé la vue" وينقل الأســـتاذ ادوار هـــذا القول بالعبارة التالية : « ... ولعلنا خدعنـــا في نهار ملبد بالغيوم » أو لعلنا فوجئنا بشيء من الاضطراب صـــعد الى رؤوسنا فاختلط بالوهم نظرنا » ! أيصعد الاضطراب الى الرؤوس ؟! أيختلط النظر بالوهم ؟! .

خامسا : (المنظر الثالث من الفصل الخامس : يستعمل المترجم في هذا المنظر كلمة « اعتزال » ترجمـة لـكلمة "retraite" أكثر من مرة ، واظن أنه أراد أن يقول « انعزال » لا سيما أنه لا يذكر لنـــا ما تعتزله الفتاة ، ذلك لأن الأمر يتعلق بدخول فتاة أحد الأديرة ... ويحاول دون جوان أن يتملص من وعـــده بالزواج من الغير ، ويقول لأخيها :

"... et qu'avec elle assurément je ne ferais point mon salut" ، ولكن الأستاذ ادوار يترجم هذه العبارة ترجمة غامضة ركيكة معا فيقول : « ... وانني لن احصل على خلاص نفسي طالما كنت معها » ! ويرد دون كارلوس بقوله :

"Croyez-vous, D. Juan nous éblouir ces belles excuses"

اى«وهل تظن يادون چوان انك تبهرنا(أو تقنعنا) بهذه الذرائع الخلابة ؟ » ولكن الأستاذ ادوار أعطانا هـذه الترجمة التى جعلتنى أنتفض : « وهـل تظن اننى سأكتفى بمثل هذه الخطب والمواعظ ؟ » .. ويصر دون چوان على موقفه فيقول له دون كارلوس :

"Vous aurez fait sortir ma sœur d'un couvent pour la laisser ensuite" أى : « انك تكون قـد أخرجت أختى من دير لتهجـرها (لتتخلى عنها) بعد ذلك » .. ولكن المترجم يتصرف على النحو التـالى : « ماذا ... وهل تظن أنك بعـد أن اخرجت أختى من الدير ، تستطيع أن تهجرها بعـد ذلك ؟ » ! المعنى محرف تحريفا بينا ، وتكرار كلمة « بعـد » يسبب ركاكة العبارة ... وركيك ايضا هـذا التعبير « ماذا ؟ السماء دائما » الذى يقابل فى النص الفرنسى "Et 'quoi, toujours le ciel" (الذى يعنى ببسـاطة : « انك لا تكف عن ذكر السماء ») ... وركيكة كذلك هـذه الجملة « ولكن أعلم أنه ليس أنا الذى يريد المبارزة » .. أما هذه العبارة « أطلب الترضية من السماء ، التى تريد أن تترجم لنا قول دون چوان لدون كارلوس: "Prenez-vous en au Ciel" فهى تخفق كل الاخفاق فيما أرادت ، لأن العبارة الفرنسية تعنى : « عليك أن تحمل السماء هذه المسئولية ؛ او « عليك أن تلقى التبعة على السماء » ..

لقد أطلت ؛ ومع ذلك فلم أتنـاول بالتعليق على الترجمة سوى خمسة مناظر من السبعة والعشرين التى تحتوى عليها المسرحية . ان الترجمة الأمينة التى لا تتقيد « بالحرفيـة » الا بالقدر الذى يقتضيه احترام فكرة المؤلف لهى نوع من الخلق الفنى . وهذا الضرب من ضروب الترجمة هو الذى نحتاج اليه فى محاولتنا والاستفادة من التراث الغربى . ومن المفروض أن يثق القـارىء فيمن يترجم له ، وليس من المفروض أن يعكف كل قارىء على مقارنة كل نص عربى بالنص الأجنبى المترجم ؛ ولو أن هذا يسير عليه لكان أيسر منـه أن يرد المصـادر الأصلية دون حاجة الى وساطة المترجم . ان الترجمة الحقيقية فن كما قلت ، وليس فى وسع كل انسان أن يوفق فيها مهما اعتمد على بضعة معاجم ، ذلك لأن هنـاك شيئا اسمه « روح النص » ، ولأن اتقان لغة واحدة لا يكفى للقيام بترجمة قوية أمينة لا تهزأ بعقول القراء . كيف يكون الحال اذن اذا كان المترجم لا يجيـد لغـة واحـدة ؟ انه يشوه أفـكار المؤلف وبأسلوب ركيك ... ولست أقصد بهذا الكلام ان أغمز مترجم مسرحية « دون چوان » لموليير .. فأنا وان كنت لا أعرفه الا أننى ألمس قـدرته على الترجمة الجيـدة ان هـو أبطأ فى انتاجه أولا ، وحرص على تنقيح أسلوبه بعد ذلك ..

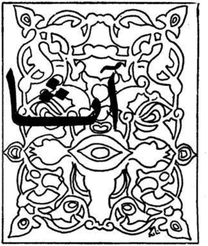
الدكتور على درويش



آثار باحثة البادية

جمع وتبويب : مجد الدين حفني ناصف

تقديم : الدكتورة سهير القلماوي



الناشر : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ٣٦٤ ص قطع كبير ث ٣٥ر٥ قرشا

كان جميــــلا من المؤسسة المصرية العــامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر التابعــة لوزارة الثقافة والارشاد القومى أن تخصص هذا الكتاب فى سلسلة « تراثنا » للمجموعة الكاملة لأعمال أديبة مصرية مرموقة من أوائل أديباتنا الرائدات فى العقــدين الأولين من هــذا القرن العشرين ، وهى الأديبة العريقة فى نسبها الى الأدب ، السيدة ملك بنت الأديب الشاعر حفنى ناصف ، خدين شــاعر النيل حافظ ابراهيم وأحد القلة الذين تركوا أثرا واضحا فى نهضة الادب العربى منذ أواخر القرن التاسع عشر .

وكان توفيقا محمودا أن يضطلع بجمع آثار هذه الأديبة المرموقة أديب آخر هــو الشقيق الأصغر للسيدة ملك ، بل لعله كان يحتل لديها منزلة الأبن لقيامها على رعايته منــذ طفولته الباكرة بعد وفاة أمهما .

ويزيد من قيمة هذا التوفيق أن تتولى أديبة عالمة من معــالم نهضتنا النسائية المعاصرة فى الأدب وفى الجامعة هى الأستاذة الدكتورة سهير القلماوى بانشــاء تلك الدراسة الجيدة التى تصدرت هذه الآثار المجموعة لباحثة البادية .

فقيام الدكتورة سهير بالذات بهذا العمل بمثابة تنويه لطيف لبق بأن الأرض التى وقفت باحثة البادية نفسها على حرثها وسقيها ــ وهى أرض تحرير المرأة عقليا واجتماعيا وثقافيا على وجه الخصوص ــ قد زكا نبتها وآتى ثمراته الطيبة بعد وقت قصير فغدا بهجة للعين وغذاء طيبا للعقول والأذواق .

وكانت الدكتورة سهير على العهد بهــا فى تحرى الدقة والأمانة فى وزن الأعمال الأدبيــة وما يترتب عليهــا من آثار بميزان العلم الذى لا يفتات على خصم ولا يحابى صديقا . فلا يشعر القــارىء بشىء من التعصب العاطفى من سيدة لســيدة أخرى فى مضمار الانتصار للمرأة . فلو صدر ما كتبته الدكتورة سهير من قلم رجل منصف لما وسعه أن ينقص مما كتبته شيئا ، بل لعله كان حريا أن يزيد عليه أشياء فى معرض التنويه والاعجاب . بيد أن الكاتبة العالمة آثرت فيما نعتقد الأخذ بالأحوط فأسرفت فى الحياء

ارضاء للحقيقـة التي لا يعرف البحث العلمي له مطلبا سواها .

« ان جهاد الأول ليس خطوات نستفيد منها في أننا نستطيع أن نسير الى ما بعدها فحسب ، ولكنها خطوات تعين بخط سيرها الذى سارت فيه منهاج المستقبل وخطة الغد ... والحديث عن ملك حفنى ناصف في حد ذاته ليس متعة فحسب ، ولـكنه فائدة عظمى ودرس لا يمكن الا ان يكون موحيا في كل ظرف وزمان » .

بهذا القصد المستقيم في القول مهدت « باحثة الجامعة » لدراستها عن آثار « باحثة البادية » . ثم اتبعت ذلك بالمقياس الوحيد السديد المتفق عليه بين جميع الدارسين منذ عهد بعيد :

« لا تظهر قيمة جهـد المصلحين الا اذا تأملنا الحالة قبل دعوتهم ثم تأملناها بعـد أن أثمرت هذه الدعوة بشكل أو بآخر . لذلك لابد لنا من أن نلقى نظرة عامة على أحوال المرأة في النصف الثاني من القرن الماضي لنرى الى أى حد أفلحت دعوة قاسم أمين وباحثة البادية في تغيير الحال . ولا يمكن لدعوة اصلاح — مهما يكن شأنها — أن تقتصر جـدواها على الزمن القريب أو التغيير المباشر الذىأحدثته . ان ثمرات الاصلاح — مهما صغرت — لبنات في البناء يأخذ كل منها مكانه ويشد بعضه بعضـا في سبيل ارتفـاع البنيان الشامخ : بنيان كمال الانسان وسعادته . وآثار كل دعوة اصلاح هي لبنات في كل ما وصلت اليه المرأة اليوم وكل ما ستصل اليـه غدا في سبيل أن تمكن من أن تؤدى دورها الرئيسى في الحياة : أن تسعد نفسها وتسعد من حولها وتسعد جيلا لاحقا بكل ما يمكن أن تتقن من عمل ، وتقـدم من صبر ودأب وتضحية ... » .

وعلى هـذا النهج الواضح السليم أمسكت الدكتورة سهير بطرف الخيط في نهضـة المرأة المصرية الحديثة . وكانت هـذه البداية رجلا لا امرأة . وهـذا الرجل « شيخ » أزهرى في في نشأته ومثقف تقدمى في عقليته وثقافتـه الأوربية . وهـذا الأزهرى التقدمى هو الرائد العظيم « رفاعة رافع الطهطاوى » عضو البعثة الى فرنسا على عهد « محمد على » .

« وكان الطهطاوى أول صوت — فيما أعرف — نادى في مصر الحديثة بوجـوب تعليم البنات ورفع الحجة السخيفة الواهية التى تقول : تعلمت المرأة فانها تتقن كتابة خطابات الغرام بل دافع عن وجوب تعليمها كل علم ممكن ، فلابد أن تسلح لكل احتمال » .

وهكذا « تحمس الطهطـاوى بالقدر الذى يسمح به زمانه للاصـلاح الاجتماعى ولتعليم المرأة » . ولكن « بعـد ان سارت مصر شوطا نحو التقدم جاءها سر الاستبداد والظلم المنيع ، ليحول دون تدفق الحياة الطبيعية ، وأصيبت الحيـاة بشـلل وأصيبت دعوة الطهطاوى في السياسة الديموقراطيـة والاصـلاح الاجتماعى بشلل أيضا ، فنامت دعوة اصلاح أحوال المرأة طويلا » .

وتصف الدكتورة أحـوال المرأة المصرية في آخر القرن الماضي مستشهدة بأقوال من وصفوها من الرحالـة الأجانب ، فاذا هى : « تلك التى اذا سارت في الشارع بدت وكأنها خيمة متحركة! — على حـد تعبيرهم — وبيتها — في الأغلب — لا نظام فيه ولا ذوق بل ولا نظافة . لقد فقدت بحكم الجهل المسيطر على عقلهـا لذة الاهتمام بالبيت . الطعام أهم ما يشغل نهـارها ... والبيت كله في الأغلب والأعم مرجـل يغـلى بالضرائر ، وسلاح الطـلاق مسلط عليـه ، والأقارب والأبناء غير الأشقاء والسرارى يعيشون في معمعة . وعلى قمة الجبل في ميدانها رجل مفروض فيـه أن ينفق وأن يحكم ، فهو ينفق حسبما يروق له ، ويحكم قدر ما يستطيع ! » .

لذلك كله « كان ظهور ملك باحثة البـادية كاتبة وداعية ومصلحة من صميم البيئة المصرية حدثا هاما في تاريخ المرأة ، وبشيرا بآثار أعمق وأقوى ... وهى بنت أبوين مصريين يعيشان في بيئة مصرية صميمة » .

وكان ظهور باحثة البـادية ابان دعوة قاسم أمين الجريئة لتحرير المرأة ، « فدعت كما دعا الى أن تحرر المرأة ، وان سمت التحرر اصلاحا وسماه هو تحريرا » .

ومن هذا التصوير للبيئة والظروف تدرجت الدكتورة سهير الى تاريخ حياة « باحثة البادية » وبيئتها الأسرية والاجتماعية والعقلية الخاصة بها . فكانت أول فتاة حصلت على شهادة اتمام الدراسة الابتدائية ثم على دبلوم المدرسة السنية ، وقرأت فى تلك الأثناء كتب الفحول من الشعراء الأقدمين على والدها الأديب الشاعر المعلم القاضى حفنى ناصف بك .

وتمضى الدكتورة فى تتبع مراحل حياة « ملك » فى العمل ، وفى الكتابة ، وفى نظم الشعر ، وفى رعاية الأسرة بعد وفاة والدتها ، وفى النشاط الاجتماعى ، وفى التدريس ... الى أن تزوجت من شيخ العرب عبد الستار الباسل بك من رؤساء القبائل العربية فى اقليم الفيوم . وهو رجل ممن نالوا قسطا من التعليم العصرى ، وزفت اليه ملك ورحلت معه الى البادية . ومنذ ذلك الحين صارت تنشر مقالاتها بتوقيع « باحثة البادية » .

وترجع الدكتورة سهير الى شقاء ملك فى حياتها الزوجية بتلك البادية كثيرا من عناصر ادبها وملامحه النفسية الحزينة . فقد كان زوجها العصرى الوجيه « رجلا يمارس حق الرجال الذى به استبدوا فى عصره : حق أن يعيش كما يهوى والمرأة الى جانبه جزء مكمل لوجوده ، او تحفة ثمينة يفخر بأنه يحوزها .

ولم تكن ملك بعد كمال **نضوجها ونضوج** شخصيتها الفذة بقادرة على أن تكون مجرد ملحق لانسان مهما يكن » .

وهو كلام جميل فى مجموعه . ولكنى أحب ان أتلبث قليلا عند كلمة وردت فى كلام السيدة الدكتورة سهير القلماوى . وهى كلمة « نضوج » هذه ... فانى أحسب الصواب هو « النضج » لا « النضوج » ... أم لعل فيها قولين ... ؟ أو لعله ايثار الخطأ الشائع على الصحيح المهجور .. ؟ ربما .. ! .

وكلمة اخرى جاءت بعد تلك ببضع سطور ، عند قول الدكتورة :

« وفى هذه السنوات الاحدى عشرة التى قضتها ملك باحثة للبادية استعلت فى نفسها تلك النار المقدسة التى دار بينها وبين « مى » فيما بعد الحديث عنها : تلك النار التى الهبت قلبها فجعلتها تكرس اللسان والقلم للدفاع عن قضية المرأة والمطالبة بحقوقها » .

وكلمة « تكرس » هى التى أعنيها . فأحسبها ليست من العربية الأصيلة فى شىء ، وان كانت من الخطأ الشائع على الألسنة فى الخطب ، وعلى الأقلام فى صفحات الكتب . ومبلغ علمى ان الكلمة نصرانية معربة . وأحسب المقصود هنا . تخصص .

وفيما خلا هذا « التبسط » فى مواضع قليلة من تعبيرات هذا البحث لا يجد القارىء الا كل ما فيه متاع للذهن من التمحيص ونزاهة الراى وثاقب النظر .

اما المجموعة نفسها التى يتكون منها صلب الكتاب فيكفى فى تمجيد صاحبتها الراحلة أن معظم ما طالبت به فى جرأة تصل أحيانا الى الفدائية التى تعرض صاحبتها للمعاطب والمكاره — أقول أن معظم هذه المطالب العسيرة البعيدة المنال وقتئذ حققها المد الطبيعى للمجتمع المتطور . وهذا التحقق نفسه دليل فضل لها .

فلئن أخذنا اليوم دوران الأرض حول الشمس مأخذ التسليم الذى لا يثير عجبا ولا تساؤلا لأنه بديهى ، فالفضل فى ذلك لجاليليو وامثاله ممن لولاهم لظل هذا الرأى البديهى خارقة نقابلها بالانكار الشديد .

وثمت شىء آخر نحب أن نسجله لباحثة البادية : ان نصاعة رأيها وقوة منطقها يطلان علينا حتى اليوم من سطورها ، ونحن ما نحن اليوم من شيوع التعليم والمنطق العقلى بيننا .

فناهيك بتلك المزايا في ذلك العهد الذي كانت المرأة فيه قرين الدابة وصنو الطنافس والزخارف العجماء والصماء على أحسن التقدير .

ولئن قيل ان الثواب على قدر المشقة ، فجدير بنا أيضا أن نقول أن النبوغ على قدر الجهالة ، والسمو على قدر الاسفاف • وأدعى للاعجاب أن يكون ذلك كله في أسلوب مشرق آلاق :

« وظيفة المرأة هي اسعاد الكون وتخفيف متاعبه . وظيفتها نافعة وضرورية كوظيفة الرجل . ولكن الجهل أفسد خالقها وجعلها ترضى بأن تكون أنثى لا غير فاحتقرها الرجل لأنها هي احتقرت نفسها أولا وجهلت قدرها . وماهلك امرؤ عرف قدر نفسه ! » .

كلام محكم واضح النهج متين النسج ! .

وعلى هذا النسق كلام باحثة البادية كله ، لا يقع القارىء منها على سقطة في التعبير أو ركاكة في المنطق أو تهافت في الحجة . بل لعلها الى التحفظ والاحتجاز اقرب منها الى التهور والاندفاع . فهي لا تطلب حقوقا للمرأة على طريقة « المزايدة » المعهودة عند بعض ادعياء التحرر ، أو بعض « المقلدين » في التقدم ! وهي ليست من الداعيات الى التمرد والشطط والطفرة ، بل تؤثر الأناة والاصلاح المتطور الرصين عن طريق التربية وبث الوعي والتخطيط .

وانه لنهج قويم كريم . لن تفرغ حاجتنا اليه في حياتنا الناهضة . وكفى صاحبته فخرا اننا قطعنا الشوط الذي صبت اليه وزدنا عليه . وان من بيننا اليوم العالمة المصرية التي كتبت عنها بحثا جليلا ، وان عشرات الألوف من المصريات يقمن بالتعليم ، وان عدد الطالبات يكاد يقارب في بعض كلياتنا عدد الطالبين .

ولست أدري ماذا كانت حرية أن تقول باحثة البادية لو رأت باديتنا وحواضرنا اليوم . هل كانت تنادي بمزيد من التحرر ، أم عساها كانت تجنح الى المطالبة بشيء من التريث والاحجام ؟ .

أكبر الظن انها كانت ترضى عن كثير . ولا ترضى أيضا عن كثير . ولكن ابتسامة الرضا عما تحب ستكون أكبر من نظرة الاشفاق مما لا تستسيغ ...

رحم الله باحثة البادية بما نبهت وبما دعت وبما دبجت ..

صوفي عبدالله

فن الخطابة



تأليف الدكتور احمد محمد الحوفى

الناشر : مطبعة الرسالة

٢٧٤ ص قطع متوسط

عرفت الانسانية الخطابة فنا فى طليعة الفنون ، وهى وفن الشعر أقدم فنون الأدب على الاطلاق ، اذ هما فى جملتهما حديث عن النفس ، هى حديث عن آراء وأفكار ومثل وعقائد يؤمن بها الخطيب ويدعو اليها ، وهو حديث عن عواطف وانفعالات وتجارب . وكلاهما أحس الانسان بالحاجة اليه ليفضى بما يريد الاقتضاء به مما يحقق للنفس أو للحياة غاية من الغايات .

وكذلك عرفت الانسانية الخطابة علما أو لونا من ألوان المعرفة منذ امتهنها جماعة السفسطائيين ومنذ أخذوا فى تعليم أبنـاء اليونان اصول هذا الفن وقواعده التى تجعل منهم خطباء قادرين على اختلاب العقول والاستيلاء على القلوب وقيادة الجماهير الى ما يريدون قيادتها اليه .

وقد تمثلت الصورة الـكاملة لتلك الأصول والقواعد فى كتاب « الخطابة » الذى ألفه المعلم الأول ارسطو . والخطابة عند أرسطو متصلة بالجدل ، وكلاهما يعنى بأمور يمكن معرفتها من غير التجـاء الى علم بعينه ، لأنها أمور يمارسها النـــاس بدرجات متفاوتة ، وكل انسان يحاول ما أسعفه الجهـــد أن يعارض حجة من الحجج وأن يدعمها . ولكن النظر فيما يؤدى الى انجاح هذا العمل يستلزم أن تكون هناك طريقة وأن يكون هناك مجال للتوجيه .

وقد تحدث أرسطو حديثا مستفيضا فى كتابه عن الخطابة ، ودرس حاجـــة المجتمعات اليها ، وعرَّف بأقسامها وأجزائها وموضوعاتها وعبارتها فى دراسة واســعة تنهج نهجا تعليميا ونقديا فى الوقت نفسه . وظل كلام ارسطو اماما فى أصول فن الخطابة ، كما ظل كلامه فى فن الشعر اماما فى أصول الشعر ، لكل من يتحدث فى أحد هذين الفنيين ، وأصبح الكتابان من تراث الانســـانية الخالد حتى يومنا هذا .

وفى قـــديم تاريخنا الأدبى تحدث الجاحظ (٢٥٥ هـ) فى كتاب «البيان والتبيين» عن هذا الفن عند العرب ، كما تحدث عن أعلامه ومحاسنهم ومثالبهم ، وعرض لمواقفهم وتقاليـــدهم ، وأشاد

ببيانهم وقدرتهم على الارتجال فى دراسة مفصلة ممتعة تقرأ فيهـــا عاطفة صادقة نحو العرب ، ودفاعا مجيدا عن أصالة هذا الفن عندهم ، بعد موازنات جيـــدة بينهم وبين غيرهم وقد عرف العرب كثيرا عن خطابة اليونان والفرس والهنود وخطبائهم بعد أن احتكوا بهم ، وبعد أن قرءوا كتبهم .

وكان من الطبيعى فى نهضتنا الحديثة أن يأخذ فن الخطابة حظه من الدرس والعنـــاية بجانب الفنون الأدبيـــة الأخرى ، وكان من أثر هـــذه العناية كتابان ، هما كتاب « الخطابة » الذى ألفه الدكتور نقولا فياض ، وكتاب « علم الخطابة » الذى ألفه الأب لويس شـــيخو اليسوعى وأميل اده . كما ظهرت ترجمـــة حـــديثة لخطابة أرسططاليس بقلم المرحوم الدكتور ابراهيم سلامه ثم كان هذا الكتاب الذى نتحـــدث عنه فى هذه الكلمة ، وهو كتاب « فن الخطابة » .

والدكتور أحمـــد الحوفى واحد من أولئك الرجال الذين أذووا نضرة حياتهم وزهرة شبابهم فى تحصيل العلم وتعليمه ، حتى انتهى به جهاده الى وظيفة الأستاذية فى كلية دار العلوم ، وهو رجل خصب القريحة واســـع الثقافة فى علوم الأدب ، وقد أمدت هذه القريحة المواتية والقلم المطاوع المكتبة العربية بنحو عشرين كتابا تدل على غزارة المعرفة بالأدب قديمه وحديثه وكتاب « فن الخطابة » الذى نقدمه اليوم أحد الجهود الصادقة الموفقة التى بذلها وما يزال يبذلهـــا الدكتور الحوفى فى صبر لا يتسرب اليه ملال ، وفى همة لا يدركها كلال .

وكانت الكلمة الأولى فى فن الخطابة للمرحوم الدكتور ابراهيم سلامه ، وهى فى مجملها كلمة تحية وتقدير ، فرأى الكتاب محققا للفكرة التى وضع من أجلها ، قاصدا الى الغاية التى هدف اليها المؤلف من سبيل قريب ، وأنه الأول من نوعه بين المؤلفات الحديثة التى تعرضت للخطابة « فما سبقه من الكتب كان يعنى بناحية واحدة فقط ، هى الناحية التى يجـــد فيها المؤلف نفســه ، لأن المؤلف ينزع الى نفسه ، تدفعــه الى ناحية الافكار التى جمع ثقافته حولها .. » ثم يقول ان فن الخطابة جاء مترجما للحديث بفنيته ، ومعبرا عن القديم بمادته ، وانه تناول فى موضوعه كل ما يتصل به الموضوع اتصالا مباشرا مما له علاقة بعلم النفس وعلم الاجتماع، الى يقظته لـــكل ما قيل فى العصر الحديث ، ولكل ما نشأ عن التطور الحديث » .. ثم ندع المقدمة ، أو كلمة التقدير أو المجاملة ، الى عرض سريع لما اشتملت عليه الفصول التسعة التى ينتظمها الكتاب ..

والفصل الأول من هذه الفصول تكلم فيه المؤلف عن الخطابة والخطيب ، فأورد عـــدة تعريفات لها ، وشرح قيمتهـــا ، وما يـــدعو لدراستها . ثم تكلم عن عدة الخطيب وصفاته، وهى : الاستعداد الطبيعى ، واللسن والفصاحة، وسعة الثقافة ، ومعرفة نفسية السامعين ، وسرعة البديهة ، وحرارة العاطفة ، وروعـــة المنظر وجودة الالقاء ، وســـمو الأخلاق ، ثم موازنة يسيرة بين الخطيب والشاعر ، ثم بينه وبين الممثل .



وتحدث فى الفصل الثانى عن نشأة الخطابة وعوامل رقيها ، وهى الحرية ، وطموح الأمة ، والأمية ، وسرعة البديهة، والأحداث السياسية والدينية والاجتماعية ، والحروب والثورات ، والأحزاب السياسية وغيرها .

وتحدث فى الفصـــل الثالث عن نفســـية الجماعة ومسلك الخطيب . وفى الفصل الرابع درس أنواع الخطـــابة ، فعرض تقسيم أرسطو

اياها الى خطابة استشارية ، وخطابة قضائية ، وخطابة استدلالية . واتجاه كل منها وغايته ، ثم نقد هذا التقسيم ، ودرس التقسيم الحديث الى خطابة سياسية ، وقضائية ، وحفلية ، ودينية ، وحربية .. وذكر خصائص كل نوع منها وتاريخه وغايته واعلامه من القدامى والمحدثين .

وفى الفصل الخامس تعرض المؤلف للأجزاء التقليدية للخطبة ، وهى المقدمة ، والعرض ، والتدليل ، والتنفيذ ، والخاتمة ، وقد درس هذه الأجزاء ، وترتيبها ، وخصائصها ، وأمثلتها فى ست وعشرين صفحة .

أما الفصل السادس فقد تكلم فيه عن الأسلوب الخطابى ، ووازن بينه وبين الأسلوب الكتابى ، وعرض لقضية اللفظ والمعنى ، ثم شرح خصائص الأسلوب الخطابى ، وهى عنده الاطناب ، والوضوح ، واثارة الشعور ، وموسيقى الأسلوب ، والقياس المضمر .

وتكلم فى الفصل السابع عن الارتجال فى الخطابة والاعداد لها . وخصص الفصل الثامن للحديث عن تصور الأمم للخطابة ، فتحدث عن اليونان وأورد نموذجين من خطب ديموسينيس ثم عن الرومان وشيشرون ، ثم عن العرب والمحدثين ، ثم تكلم عن المرأة والخطابة .

وخصص الفصل التاسع للحديث عن الخطابة السياسية فى العصر الأموى .

هذه هى فصول « فن الخطابة » أشرنا اليها بايجاز ، لكى نبين الموضوعات الكثيرة التى عرض لها الكتاب ، والتى عالجها علاجا جيدا واعيا يشهد لصاحبه بالاحاطة بموضوعه والالمام بأكثر أطرافه التى يعنى القارىء الالمام بها . كثير من هذه الموضوعات جديد فى تناوله ، ولا سيما الفصل الثالث والفصل السادس والسابع والثامن والتاسع ، ونعنى بجدة التناول أن هذه الموضوعات درس بعضها أو أجزاء منها فى كتب الأدب العام ، ولكنها حظيت فى هذا الكتاب بشىء من التفصيل وكثير من التنظيم ، ولا شك أن هذا الكتاب المتخصص هو فطنة التفصيل وفطنة التنظيم أيضا ، ومن هاتين الجهتين تلتمس ميزة



الكتاب التى يفضل بها من الجهود والتأليفات التى سبقته فى فن الخطابة .

ولا يمنعنا تقدير الجهود المشكورة التى بذلها الدكتور الحوفى فى هذه الموسوعة الخطابية فى وعى واخلاص لم بهما شتات هذا الفن ، ووصل بهما قديمه بحديثه ، من ان نبدى بعض الملاحظات لتكون كلمتنا مشاركة بناءة فى خدمة الموضوع وبعض هذه الملاحظات يتصل بالشكل وبعضها يتصل بوجهة نظر تفيد من هذا البحث القيم الذى يثير كثيرا من الفكر والآراء التى تتصل بموضوعه .

وأولى هذه الملاحظات عناية السيد المؤلف بابراز بعض الأفكار التى تناولها فى صلب كتابه وكتب لها عناوين كبيرة لا تقل فى حجمها او مساحتها عن حجم عنوان الكتاب الخارجى فى حين أن بعض هذه الأفكار لا يصل الاهتمام بها الى هذه الدرجة من العناية فالعنوان يشوقك بجمال خطه الذى تأنق فيه شيخ الكتاب المعاصرين سيد ابراهيم فى حين أن عنوانا جزئيا كان فيه الكفاية للدلالة على المراد ؛ ولو كان الموضوع يستحق مثل هذه العناية فان الدراسة التى جعلت لها هذه العناوين الكبيرة دراسة موجزة الى أضيق حدود الايجاز الذى يدعو الى ادماجها فى غيرها ؛ ولا احب أن ادع هذه الظاهرة — وان كانت تتصل بالشكل — دون تمثيل ، ففى رأس الصفحة (٤٣) عنوان كبير بالخط الفارسى الجميل هو «الخطيب والشاعر واذا نظرنا الى ما تحت هذا العنوان الجميل

الكبير الذى كان رأس صفحة وشغل موضع أربعة أسطر ألفيناه أقل من صفحتين . وكذلك فى رأس الصفحة (٤٥) عنوان كبير بالخط الفارسي الجميل هو « الخطيب والممثل » فى حين أن الموضوع كله بما فيه العنوان لايتجاوز صفحة واحدة هى صفحة (٤٥) ثم ينتقل فى الصفحة التالية (٤٦) الى فصل جديد هو الفصل الثانى الذى عقده لدراسة نشأة الخطابة وعوامل رقيها.

واعتقد ان فى أمثال هذا كثيرا من الاسراف، وكثيرا من الترف الذى أعتقد أن المؤلف لايحرص عليه حرصه على الدرس المستفيض العميق . كما اعتقد أن الموضوع الأول بخاصة « الخطيب والشاعر » كان يتسع لدراسة أوسع وأعمق أكثر من القول بأنه كان فى العرب شعراء خطباء من أمثال عمران بن حطان ، ودغفل ، ونصر بن سيار ، وبشار بن برد ، والطرماح بن حكيم ، والكميت ، وكلثوم بن عمرو العتابى ، وسهل بن هارون ، وأن حافظ ابراهيم كان يلقى قصائده القاء الخطيب المصقع المجيد ، فيتأثر بها سامعوه أكثر من قارئيه ، وان الجارم كان يفتن فى القاء شعره فيخلب ، بينما لم يلق شوقى قصيدة من قصائده ، وانما كان يتخير من يلقيها فى المحافل ، وأن فى الفرنجة كثيرا من الشعراء الخطباء مثل لامارتين الذى هز المنابر بخطابته ، كما هز القلوب بشعره ، ومثل جورس الخطيب الشاعر الذى كان فى العشرين من عمره يمشى على شواطىء الكمارون مرددا فى الفضاء نثره الشعرى الرائع ، وكليمانصو شاعر فى كتابته وخطابته ، وبيرون خطيب فى شعره !

كنت أعتقد أن الموضوع يتسع لأكثر من هذا ، فيبحث بحثا مفصلا عن أصالة هذين الفنين ــ الخطابة والشعر ــ مع تفصيل مجال كل منهما ، وشرح العوامل التى جعلت من هذا الأديب شاعرا ، وجعلت من غيره خطيبا ، أو جعلت من اديب واحد خطيبا شاعرا فى وقت واحد ، وهى عوامل نفسية واجتماعية كثيرة معروفة .

ولا أحب أن أدع هذا الموضوع بعد أن استوقفنى قول الدكتور الحوفى فى الموازنة بين الخطيب والشاعر ، أو بين الخطبة والقصيدة « وللقصيدة وحدة عضوية ، أما الخطبة فانها ذات أجزاء ومراحل فى أكثر الأحيان » فلست أفهم على التحديد ما يريد الكاتب ان يقول الا ما يدل عليه ظاهر عبارته ، وهو أن للقصيدة وحدة عضوية ، اما الخطبة فلا وحدة عضوية لها لأنها ذات أجزاء ومراحل فى أكثر الأحيان !

واذا كان هذا هو المعنى الذى يريده الدكتور الحوفى فانى لا أوافقه عليه ، بل اخالفه فيه ، وأذهب الى أن العكس هو الصحيح ، لأن تكوين الخطبة من أجزاء ومراحل لا ينفى اجتماع الوحدة العضوية لها ، لأن كل جزء من أجزاء الخطبة مرتبط بما قبله ، ومرتبط كذلك بما بعده ، وهذا الارتباط ينبغى أن يكون شديدا بين الأجزاء ، وكل ما يمكن أن يضاف أو ألا يضاف ــ كما يقول ارسطو ــ دون نتيجة ملموسة لا يكون جزءا من الكل . والوحدة العضوية فى الشعر تكلم عنها أرسطو فى لونين فقط من ألوان الشعر هما شعر الملاحم والشعر المسرحى أما الشعر الغنائى فقد اغفل أرسطو الكلام عن الوحدة فيه ، بل لا نجد فى كتاب « فن الشعر » حديثا أى حديث عن الشعر الغنائى . ويعرف صديقنا الدكتور الحوفى أن أكثر القصائد العربية المأثورة تفقد هذه الوحدة العضوية وتتعدد فيها الموضوعات .

أما الخطب والرسائل فانهما الأصل فى هذه الوحدة ، وليس تكونهما من اجزاء سببا من أسباب فقد تلك الوحدة كما يرى الدكتور ، فان كل عمل أدبى منظوما أو منثورا لا بد ان يتكون من أجزاء . والذين نشدوا هذه الوحدة فى الشعر من نقاد العرب انما قاسوا الشعر فى هذه الناحية بالخطبة والرسالة أى أن الخطبة والرسالة هما الأصيلتان فى تلك الوحدة، ووحدة الشعر تقاس بالوحدة فيهما ، فالحاتمى (ت ٣٨٨ هـ) يمثل القصيدة بالانسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالمه، ثم يقول : وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها

واعجازها ، وانتظام نسبيها بمديحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل منها جزء عن جزء » ..

والأصل فى ذلك أن الخطيب والكاتب ، كلاهما يعالج موضوعا واحدا فى الأغلب ، لأن لدى الخطيب فكرة ينادى بها ، ومبدأ يدعو اليه ، وهو الذى حفزه للكلام ودعاه للخطابة ، فالوحدة موجودة بطبيعتها فى الخطبة ، وكذلك فى الرسالة اذا كانت ذات هدف يرمى الكاتب الى تحقيقه منها .



ومن هذا يؤخذ على الدكتور الحوفى قوله عن العرب فى معرض كلامه عن الخطابة فى تصور الأمم : ان العرب فى الغالب لم يتصوروا الموضوع وحدة ذات معان مرتبة كما تصور اليونان والرومان ، وانما كانت لهم لفتات ونظرات الى ما يهمهم من الموضوع ، فلا يستقصون ولا يرتبون الأفكار ، ولعل سبب ذلك شيوع الارتجال ، واستشهد على ذلك بقول الجاحظ « وكل شيء للعرب فانما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكرة ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف وهمه الى الكلام » .... وكأنه حسب أن الارتجال ينافى هذه الوحدة ، وكأنه يراها لا تتحقق الا بالاعداد والروية والتحبير . وليس الرأى عندنا ذاك ، فليس الارتجال الا آية القدرة والتمكن ، ومعنى كلام الجاحظ واضح ، وهو أنه يريد أن يقول ان ما يدركه العرب بديهة وارتجالا لا يتأتى لغيرهم الا بعد معاناة ومكابدة ، وهذه عبارة الجاحظ صريحة « فما هو الا أن يصرف — الخطيب العربى — وهمه الى جملة المذهب والى العمود الذى اليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولايدرسه أحدا من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون» وشتان بين مفهوم هذا الكلام وغايته ، والوحدة التى لا يتعلق بها شيء من هذا الكلام !

وكنا نتوقع فى بحث متخصص فى فن الخطابة يدرسها عند العرب وعند اليونان والرومان أن يتتبع ما ذكره الجاحظ من أن ابراهيم بن مخرمة السكونى الخطيب كان « يعلم فتيانهم الخطابة » فان هذه العبارة الموجزة تفتح لنا آفاقا فى دراسة الخطابة عند العرب ، وتدل على عظم تأثرهم بتعاليم السفسطائيين الذين كانوا يعلمون أبناء الأشراف، الخطابة ، وتدلنا فى الوقت نفسه على أن الخطابة أصبحت عند العرب اذ ذاك علما له أصوله وله معلموه وله تلامذته ، كل ذلك كان فى حاجة الى دراسة وتتبع واستقصاء وقد وجد الدكتور المفتاح فى هذه الكلمة الموجزة ، ولن يقنعنا منه مع هذا النص الصريح أن يقول لنا « اذا كان اسحاق بن حنين قد ترجم كتاب الخطابة لارسطو فان أثره كان ضعيفا فى الخطباء ، لأنه لم يشع بينهم ، ولأن الفطرة غلبت عليهم ، ولأن الخطابة لم تكن تعلم كما كانت تعلم عند اليونان والرومان » !

ثم ان المؤلف يكبر من شأن الاعداد ، ويغض من شأن الارتجال فى الخطابة ، ويقول فى ذلك « للاعداد مزايا ، لأن الاساليب المرتجلة أقل بهاء ورونقا من المعدة ، أما الأفكار المرتجلة فانها فجة مبتسرة اذا قيست بالأفكار المدروسة الناضجة المختمرة . ثم ان ظهور الخطيب أمام الجمع بمظهر المجازف الذى لم يعد القول فيه اعتداد بالنفس واستهانة بالحاضرين ، وتبجح بعدم الاهتمام ، ودعوى أن خاطر الخطيب أسرع من خواطر الناس ، وهذه كلها صفات لا ترتضيها الجماعات » .

وليس من شأن الخطيب أن يكون مجازفا، بل لا بد أن يكون صاحب رأى ومبدأ وعقيدة

وهذا الرأى أو المبدأ أو العقيدة هو الذى يدفعه دفعا الى القول ، فاذا لم يكن ثم شيء من ذلك فان الخطبة لا أصل لها ولا أساس ، وما الذى يدعو الى حشد الناس أو جمعهم غير ذاك ؟ ولا يكون خطيبا من يجمع الناس لهم، ثم لايسمعهم الا ثرثرة وهذيانا .

وعلى كل حال فان الأساس فى الخطبة ان تكون قولا . وقراءة الكلام المكتوب خطابة من باب التجوز أو التساهل ، بعد أن عرفت أدوات الأدب ، فهنالك كلام منظوم ، وكلام منثور ، والمنثور قولى وكتابى ، والأول أداته اللسان والآخر أداته القلم ، وليس من يجيد صناعة القلم مجيدا الوقوف امام الجموع ، لأن مواجهة الجماهير والتحدث اليهم فن آخر له عدته وأدواته التى شرح الدكتور كثيرا منها . ونحن نتردد كثيرا فى قبول قول الدكتور ان الاعداد فى الخطابة العربية كان أكثر شيوعا من الارتجال، لأن ما ساقه من الأمثلة لا ينهض دليلا على الاعداد كما نفهمه ، كقوله فى حديث يوم السقيفة ان أبا بكر رضى الله عنه قال انه — فى طريقه من بيت الرسول عليه الصلاة والسلام الى سقيفة بنى ساعدة — كان يزور (يعد) كلاما يقوله فى الجمع . وقول عمر بن الخطاب انه كان قد زور (أعد) مقالة قد اعجبته يريد ان يقولها قبل أبى بكر !

فهل نستطيع أن نجازف ونسمى هذا اعدادا ؟ لقد عرف أبو بكر وكذلك عرف عمر باجتماع المسلمين فى سقيفة بنى ساعدة يتشاورون فيمن يخلف رسول الله ، فخطر لكل واحد منهما (فى الطريق) ما يمكن أن يقول وما يمكن أن يحمل المسلمين عليه فهل يمكن اعتبار هذا الخاطر (فى الطريق) اعدادا كما يفهم من معنى الاعداد ؟!

ولست أشك فى أن الذى يقرأ هذه الموسوعة الخطابية الجامعة لابد أن تثيره الأفكار المثبوتة فى تضاعيفها ، ومن خصائص البحث الجيد ان يثير الأفكار فى نفس قارئه ، وليست حسنة الموافقة بأوقع من حسنة المخالفة ، لأن المخالفة دلالة الحيوية فى البحث ، ومن المجال أن يذهب أحد الى ان قولا بالغا ما بلغ من الجودة والأصالة هو القول الفصل أو الكلمة الأخيرة فى أية قضية من قضايا الأدب والفن .



ولقد أجاد المؤلف فى الفصل التاسع الذى خصصه لدراسة الخطابة السياسية فى العصر الأموى ، فدرسها دراسة مفصلة على نحو مبتكر ، اذ شرح عوامل ازدهارها وخصائصها الفنية ، وصحح كثيرا من الأوهام التى تتصل بخطابة الأمويين ، وما كان يقال عن طابع العنف والتهديد فى خطب الخلفاء ، وبين الدكتور أن العنف والتهديد كان طابع خطب الأحزاب المختلفة من غير تمييز بين حزب وحزب .

وكانت اجادة الدكتور فى هذا الفصل تطمعنا فى الظفر بدراسة مفصلة للخطابة عند العرب فى سائر عصورها ، وتنتظم عوامل ازدهارها وأسباب تخلفها ، لأنا لا نجد أسبابا جوهرية تدعو الى ايثار هذا العصر دون غيره من الأعصر بالدراسة الواعية ، بل ايثار الخطابة السياسية بالذات دون غيرها من فنون الخطابة.

ان من حق الأدب العربى الذى تخصص فيه الأستاذ وأصبح حجه فيه يطالبه ببحث جديد عن خطابة العرب وفنونها ومناهجها فى سائر العصور ببيانه المشرق وعلمه الغزير ، وما ذلك على دأبه واخلاصه بكثير .

الدكتور بدوى طبانة

ديوان البحتري

تأليف : الوليد بن عبيد أبى عباده
شرح وتحقيق وتعليق } حسن كامل الصيرفى

الناشر : دار المعـارف ، ٦٣٩ ص ، قطع متوسط (من ذخائر العرب) ث ١٢٥ قرشا

الحديث عن البحترى حديث مستفيض متعدد الجوانب ، لاتمجه الأسماع ولا تهوم فيه العيون، ففى شعره مجال للتأمل والكثير من قصـائده يزخر بالشخوص والأجواء وتحفـه الأخيـلة والأصـداء لما امتاز به عن غيره بجزالة اللفظ وعذوبة الجرس ومتانة الحبك وبراعة التصوير.

ورواية الشعر اليوم غيرها بالأمس البعيد ، فقد كان الشعر لسان العرب يرتكزون عليه فى منطقهم ويدفعـون به فى حجتهم ، دافعهم فى الحرب والسلام ، ومنذ نشأته فى البداوة كان يعتمد على سرد الرواية والحفظ ، ويقول ابن سلام عن ابن عون عن ابن سيرين : قال عمر الخطاب ، كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه .

وجاء الاسلام فتشاغلت العرب عن الشعر بانصرافهم الى الجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته . فلما انتشر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدون ولا الى كتاب محفوظ وانما تذاكروه بالرواية والحفظ .

وهلك من العرب من هلك فحفظ أخلافهم أقل ما ورثوه من الشعر ، وذهب عليهم منه كثير ، ويروى عن النعمان بن المنذر أنه كان لديه ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح هو وأهل بيته به، وصار ذلك الى بنى مروان من بعده . وعن يونس ابن حبيب : قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم من الشعر مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير .

فلما راجت رواية الشعر وذكر أيامهـا ومآثرها واستقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم وأرادوا أن يلحقوا غيرهم قالوا على السن شعرائهم ما يضاهى غيرهم ثم كانت الرواة فزادوا فى الأشعار التى قيلت ، وأضافوا اليها وبدلوا ، وربما اختلقوا أبياتا ليس لها نص لأسباب عدة منها المباهاة والفخر أو النيل والانتقاص .

وعلى ما يقال كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حمـاد الرواية وكان ينتحل ويؤلف ، غير موثوق به يزيد فى الأشعار وينحل غيره شعره . ويروى عنه أنه قـدم البصرة على واليها بلال بن أبى بردة ، فلما حـدثه ، قال بلال : ما أطرفتنى شيئا ، فعاد اليه وأنشـده قصيدة للحطيئة فى مدح أبى موسى ، فعلق بلال بقوله : ويحك ! يمدح الحطيئة أبا موسى ؟ أنا لا أعلم به وأنا أروى شعر الحطيئة ... ولكن دعها تذهب فى الناس .

وقيل العجب لمن يأخذ عن حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر .

وفى الدولة الأموية ظهر شـعراء عظام كالأخطل وجرير والفرزدق والراعى والنمـيرى وابن قيس الرقيـات والكميت وزياد الأعجم وغيرهم ، فكان رواتهم يضيفون ويحذفون دون أن يعترضهم مغن أو يردهم ناقد لتباين الظروف واختلاف المواضع اما لدفع كريهة أو لجلب منفعة وبعد أن أخذت القبائل تتجمع فى كيان الدولة وتسكن البلدان والأمصار ، وكانت المجـالس تكتظ فى الأسواق وفى المسـاجد ودور السراة

والقواد والخلفاء وشيوخ القبائل الضاربة في الصحراء ·

وكان الخلفاء يعنون بالشعر وحفظه ويوصون مؤدبي أولادهم بتلقينهم أحسنه وأصفاه ، فكان مما أوصى به هشام بن عبد الملك سليمان الكلبي مؤدب ولده : أن أول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله وتقرئه في كل يوم عشرا يحفظه حفظ رجل يريد التكسب به ، ثم روه من الشعر أحسنه ، ثم تخلل به أحياء العرب ، فخذ من صالح شعرهم هجاء ومديحا ، وبصره بالحلال والحرام والخطب والمغازي ، وأوصى المنصور شبيبا القاضي مؤدب ولده المهدي بأن يعلمه الشعر ويوجهه اليه فحفظ منه الكثير ولذلك كانت مجالس المهدي في ولاية العهد وفي أيام خلافته عامرة بالشعراء يتذوق قصائدهم وينقدها ويبين أخطاءها ويجزيهم أحسن الجزاء · وسأل الرشيد يوما ولده المعتصم، ما فعل وصيفك فلان ؟ فأجاب : مات واستراح من الكتاب ، فغضب الرشيد وقال له : أويبلغ منك الكتاب هذا المبلغ ؟ والله لا حضرته أبدا · ووجهه الى البادية ، فتعلم وحفظ الأشعار بها ·

وفي العصر العباسي انتشرت الكتابة ، وأخذت سوق الوراقين والنساخ في الرواج ، وكانت لهم حوانيتهم التي يدلف اليها الشعراء والكتاب للاملاء والتدوين فتتداول النسخ من يد الى يد ومن دار الى دار بين الحذف والتنقيح أو الاضافة والتعديل الى أن تندثر في خزانة لايطرقها طارق أو تنظرها عين فطمست دواوين شعراء كبار أمثال بشار وأبي نواس وأبي العتاهية ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري، وما ظهر منها دخلت عليها أشعار أخرى لم تكن لأصحابها وذلك بفعل الحوادث والتعصب بين الجماعات وأصحاب المذاهب ·

وفي روايات الأغاني عن عهد أبي تمام : وفي عصرنا هذا من يتعصب له – أي لأبي تمام ، فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف، وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون الفسحة والمكابرة في ذلك ، ليقول الجاهل بهم أنهم لم يبغوا علم هذا وتمييزه الا بأدب فاضل وعلم ثاقب ، وهذا مما يتكسب به كثير من أهل هذا الدهر ، ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معايبهم سببا للترفع وطلب الرئاسة · وليست اساءة من أساء في القليل وأحسن في الكثير مسقطة احسانه ، ولو كثرت اساءته ثم أحسن لم يقل له عند الاحسان أسأت ولا عند الصواب أخطأت ، والتوسط في كل شيء أجمل ·

وروى بعض الشعراء أن أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن في جميعها الا في بيت واحد ، فسأله : يا أبا تمام ، لو ألغيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب ، فأجابه : أنا والله أعلم منه مثلما تعلم ، ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل أولاده فيهم الجميل والقبيح ، وان أحب الفاضل لم يبغض الناقص وان هوى بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر ·

وأدرك البحتري أبا تمام في أول شبابه ودرس عليه ، وقربه أبو تمام وأعانه وقدمه الى محمد وحبه من وجوه العرب كأبي سعيد محمد ابن يوسف الثغري وآله وأبي الحسن الهاشمي وعلي بن مر ومالك بن طوق وأحمد بن محمد الطائي وآل حميد الطوسي وغيرهم من سراة العهد فقربوه وأعجبوا بشعره وأجازوه واستزادوه ·

ومات أبو تمام وعاش البحتري بعده محط الأنظار مرموقا من الولاة والحاكمين حتى وصل الى الفتح بن خاقان وزير المتوكل وكان أديبا ذواقة للشعر ومن بعده الى الخليفة نفسه الذي أدناه من مجلسه وجعله من خاصته وندمائه المقربين ثم شاعر النصر :

فالبحتري ربيب نعمة أبي تمام باعترافه وفيما نظمه من معانيه ، ولا عبرة بتنفيذ (الآمدي) في حوار صاحبيه اذ يقول على لسان صاحب البحتري ، أما الصحبة له (أى لأبي تمام) فما صحبه ولا تتلمذ عليه ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ... فان كان هذا صحيحا – في اعتراف البحتري به – فهو للبحتري لا عليه ، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبي تمام كثير الاختلاف ، وشعر البحتري شديد الاستواء ، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر ، وقد

اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلوا علوا حسنا وينحط انحطاطا قبيحا ، وأن البحترى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يسف أفضل ممن يسقط ويسف . وفى رأينا أن هذا افتيات على الحق ، وتعصب لا محل له لأن أبا تمام له ميزات كثيرة يبز البحترى فيها وفى ذكرها خروج بنا عن موضوع المقال .

احتفى القوم بالبحترى واستعذبوا شعره شانهم شان جميع العرب بما ورثوه كما قلت من حب الشعر وتمجيده ، فهم بما مدحوا كانوا يرون ما فيهم فتهزهم الأريحية للبذل والعطاء والمودة ويولد روح التعاطف بينهم .

كان البحترى يقر بفضل ما وصل اليه وينسبه الى أبى تمام ، ويقول : ما أكلت الخبز الا به ، وعن أبى بكر الصولى قال : حدثنى على بن اسماعيل النوبختى ، قال لى البحترى ، والله يا أبا الحسن لو رأيت أبا تمام الطائى ، لرأيت أكمل الناس عقلا وأدبا ، وعلمت أن أقل شىء فيه شعره .

وتزعزع كيان الدولة وقتل المتوكل ، واستولى الموالى الأتراك على الحكم ، وانقسموا على أنفسهم بعضهم على البعض ، وشاع الاغتيال وكثرت الشيع والدسائس ، ووقف البحترى فى مهب الريح يواجه كل اتجاه وهو آمن على خوف يمدح هذا وذاك ويساير الحكم أنى يكون ، يهجو النائى البعيد ويمدح الدانى القريب حتى قيل انه هجا نحوا من اربعين رئيسا ممن مدحهم منهم خليفتان هما المنتصر والمستعين وساق بعدهما الوزراء والكتاب ومن جرى مجراهم من القضاة والعمال بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله فى ذلك تنبىء عن سوء العهد وخبث الطريقة كما أشار المرزبانى .

ويروى صاحب الأغانى عن ابن البحترى (أبى الغوث) أنه : لما حضرت البحترى الوفاة دعا به ، وقال : اجمع كل شىء قلته فى الهجاء ففعل ، فامره باحراقه قائلا : يابنى هذا شىء قلته فى وقت ، فشفيت به غيظى ، وكافات به قبيحا فعل بي وقد انقضى أربى فى ذلك ، وأن بقى روى ، وللناس أعقاب تورثهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شىء فى نفسك أو معاشك لافائدة لك ولا لى فيه .. واستطرد أبو الغوث ، فعلمت أنه نصحنى وأشفق على فأحرقته .

فاذا كان هذا شان البحترى نفسه فى شعره، فما بال ما كان عند ممدوحيه وهم خصوم وأعداء فى ذاك العصر غير المأمون ، لاشك أن نسخ ديوانه قد امتدت اليها يد البتر والتشويه أو زيد عليها نظم غير نظمه أريد به تغيير المعنى على ما يقضى حامل كل نسخة . وفى مثل هذا التغيير يقول الدكتور « محمد صبرى » فى كتابه البحترى (٤ الشوامخ) أن الشاعر الكبير ينقح شعره طول حياته ، وهذا هو السر فى اختلاف نسخ الديوان وتنوع الروايات ، فقد يتفق لنا أن نجد فى احدى النسخ الخطية بيتا أو أبياتا ساقطة من قصيدة منشورة فى الديوان ، فيتبين لنا من مقارنتها ببقية القصيدة أن الشاعر قصد فعلا أسقاطها من شعره ، فليس من العدل ادخالها فيه ، وانما يكتفى بالاشارة اليها . وقد كانت جميع النسخ فى أيام أبى العلاء أى منذ القرن الرابع مشوهة مغلوطة لاختلاف الروايات المنقولة ولاختلاف السماع ، وقد تبين لنا ذلك بعد درس طويل ، مما لاريب فيه أنه لأجل تيسير اقتناء نسخ عديدة من الديوان كان النساخ يجتمعون فى مكان واحد ويكتبون تحت املاء واحد منهم ، ولما كان أكثر النساخ فقهاء سقيمى الفهم كان كل منهم يسمع ما يسيغه فهمه وأذنه ، فتخرج النسخ منذ البداية معتلة ثم يتعاقب اعتلالها ويزداد بتعاقب العصور والنساخ .

طال بنا الحديث وكاد يخرج عن نطاقه ، ولنعد الى المجلد الاول من ديوان البحترى الجديد الذى عنى بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه صديقنا الأستاذ الشاعر حسن كامل الصيرفى وطبعته دار المعارف فى ذخائر العرب .

وهذا الديوان الجديد لم يبز كل ديوان سبقه لشعر البحترى فحسب ، وانما ظهر كأحسن

ما يظهر به ديوان لشاعر ضخم كالبحتري ، وحبذا لو نحا جامعو دواوين شعراء العرب الفحول هذا المنحى العميق الذى صرف فيه الصديق الصيرفي زهاء خمسة عشر عاما في جهد عنيف ، اذ «راجع» الطبعة الجديدة على خمس عشر مخطوطة ومطبوعة والمخطوطات صورها من باريس والأستانة وليبزيج وميونيخ والمدينة المنورة والقاهرة • وهذه المخطوطات يختلف بعضها عن بعض في الروايه والدقة في تلك الرواية ، كما يختلف بعضها عن بعض في النقص أو الزيادة في عدد القصائد وعدد الأبيات بل في ترتيب الأبيات كذلك ، وأحيانا في مناسبة القصيدة »

ويكفى كل هذا عناء ما تكلفه وأرهقه من مراجعة النصوص والأبيات ناهيك بالشرح والتفسير وشرح الكلمات وذكر الوقائع وتاريخ الممدوحين• فهذا جهد شاق ينوء به أفراد يشتركون فيه ، فما بال فرد واحد كرس نفسه له وتحمله بصبر وعزيمة بدافع اعجابه بالبحتري ودراسته له •

ويذكر الأستاذ الصيرفي أنه « كم من مرة حدثته النفس بالتوقف عن هذا الأمر ، وتخليص النفس من هذا الأسر ، والبعد عن هذا الطريق الوعر ، ولكن هاجسا خفيا كان يهتف بى ألا أترك الأمانة التى قيضتنى الأقدار لها عن غير علم بألا أدع شعر هذا الشاعر الفنان ينشر على الناس فى مظهر لا يليق بجمال شعره فى حين يظهر شعر من هم أقل مرتبة منه فى مظهر أنيق وعلى جانب كبير من الدرس والتحقيق » •

واننا لنحمد الله على أن طاوع هاجسه وأدى الأمانة بما يرضى الضمير والنفس معا ، فاظهر المجلد الأول من الديوان«مقدرا لمعاونيه فى اصداره معاونتهم له فى افساح الطريق » •

وانه لمشكور على ما صنع ، وما اداه للأدب الحق من واجب مضاعف • وفى المجلد غلطات مطبعية لايخلو منها كتاب مطبوع مهما حاول واصفوه وناشروه ، وهى هنات لا مأخذ عليها ، وكنا نحب لو ألحقها الأستاذ الصيرفي فى نهاية كل مجلد من الديوان مع الاستدراك ليسهل على القارىء مراجعتها أو الرجوع اليها ، ويخيل لنا أنه آثر الحاقها فى آخر مجلد من الديوان •

كذلك لا حظنا فى بعض القصائد أنه ترك بعض الأبيات على علها وصححها فى الشرح (الحاشية) ، فمثلا فى القصيدة ٤٩ ص ١٤٢ قال البحتري يهجو الحسن بن القاسم القضاعي (البيت الثانى) •

فقلت لما آتى دهياء معضلة
أبل وجدد متى أحدثت ذا النسب

وذكر فى الحاشية : هكذا ورد عجز البيت، ولعل وجهه الصحيح ؟

« ابن وحذر متى أحدثت ذا النسبا »

والمفروض أن الأبيات المغلوطة تصحح فى القصيدة ويشار فى التعليق الى خطأ الأصل لتكون القصيدة سليمة لايقف القارىء فى تلاوتها وتقطع عليه تفكيره مع خيال القصيدة وصورها

وفى القصيدة التى يمدح فيها أبا سعيد الثغرى ص ١٩ البيت ٥٥

فاذا ما رياح جودك هبت صـ
ـار قول العذال فيها هباء

وصحة الشطرة الأولى تنتهى بكلمة (هبت) وتبتدىء الشطرة الثانية بـ (صار) على وزن النغم والمفاعيل •

وفى القصيدة ٣ يمدح أبا جعفر محمد بن على القمى ص ٢١ :

ملك أغر لآل طلحة فخره
كفاه أرض سمحة وسماء

والحاشية تنوه أن تنسخ أرذ رو رز زط تضع نجره أى الأصل مكان (فخره) ، والأولى أوقع من الثانية فى نظرنا •

وفى القصيدة ٢١٥ ص ٥١٤ فى أبى مسلم الكجى وأسد بن جهور ، البيت الثانى :

لم أر كالبحر لم يرمم معـذبه
والوصل لم يعتمد معطاه بالحسد

فالشطرة الأولى مختلفة ، وربما كانت (لم أتق كالبحر لم يرحم معذبه) ٠

وفى الصفحة الأولى فيما ذكره أبو هـلال العسكرى عن القصيدة التى قيلت فى دينار بن عبد الله التى أولها «ألم تر تغليس الربيع المبكر» فجاءت كلمة (تفليس) بدلا من تغليس (بالغين) ٠

وهذه كما قلنا هنات لم يسلم منهـا كتاب مطبوع ولا تمس المجهود الرائع ٠

أما شعر البحترى وأثره وخاصيته ، وموازنته بغيره من شعراء العربية ، وحيـاته السياسية والفكرية والاجتماعية فهذا له مجال آخر لايتسع له هذا الباب ٠

وانا لنرجو للصديق الأستاذ الصيـرفى كل التوفيق فى اتمام سائر المجلدات ليتم الديوان على هذا النهج الدقيق فيزود المكتبة العربية بما هى فى حاجة اليه ٠

والمجلد يشتمل على ٢٥٩ قصيدة من حرف الألف الى حرف الدال ويقع فى ٦٣٨ صـفحة

وللصديق بعد هـذا أجمل التحية وحسن التقدير ٠

عبد السلام رستم



سطور من كتاب ...

اننى أرتعد عندما أتصور شباب ١٩٦٤ ،لايقدر هذا التطور الخطير قدره ، لأنه نما وكل الأحداث حوله تحاول أن تقدم اليه حقه فى الحياة والعمل والفرصة المتكافئة ، لأنه لم يع تاريخه القريب قبل الثورة ، ولم يعرف كم عانى الجيـل الذى سبقه وكيف كانت تحكم بلاده ؟

... قصة ملك و ٤ وزارات

الاشتراكية والتربية

تأليف
الدكتور محمد جمال صقر

الناشر : النهضة العربية .
٢٢٤ ص قطع متوسط . الثمن : ٣٠ قرشا

هذا الكتاب يتناول موضوعات التربية، ويعالج مشكلاتها ، فى ضوء التطورات الحديثة التى طرأت على مجتمعنا الجديد – مجتمع الثورة الاشتراكية – ويستوحى من هذه الثورة مفاهيم جديدة للتربية والتعليم توائم هذا التطور ، وتجعل من المدرسة أساسا راسخا فى بناء مجتمعنا الاشتراكى الجديد .

وكان لابد لعلماء التربية أن يعيدوا النظر فى مناهجهم وآرائهم بعد هذه الثورة الاشتراكية، التى قلبت الأوضاع ، وحطمت التقاليد ، وأذابت الفوارق ، وغيرت وجه الحياة ، كان لابد من ثورة تربوية تتجاوب مع هذه الثورة ، وكان لابد من اعادة النظر فى مخطط التعليم ، ودور المدرسة الحديثة فى بناء المجتمع الاشتراكى ، ومعالجة طرق التدريس التى تدعم هذا البناء ، واعداد المدرس الصالح للمشاركة فى خلق هذا المجتمع .

وكل هذا تناوله الدكتور محمد جمال صقر فى كتابه « الاشتراكية والتربية » بأسلوب العالم المتمكن من مادته ، والمؤمن بمجتمعه الجديد ، المدرك لحاجاته ومطالبه ، الواثق من رسالته . فجاء كتابه فتحا جديدا فى عالم التربية الاشتراكية ، وثورة على القديم البالى من نظريات التربية القائمة على الأثرة والأنانية وتمجيد الفرد ، ودعوة الى انقلاب شامل يجعل التربية فى خدمة المجتمع ، واستخدامها فى بناء الاشتراكية التى تدعو اليها الدولة .

والكتاب يقع فى ٢٢٣ صفحة من القطع المتوسط ، وأخرجته مطابع دار الكتاب العربى بمصر ، ويشتمل على مقدمة وستة أبواب .

وفى المقدمة يشرح المؤلف مفهوم التربية بأنها وظيفة اجتماعية ، تستمد ضرورتها ، وتكتسب مدلولها ومفهومها الحقيقى من الأهداف التى تعمل على تحقيقها ، ومن الغايات التى تسعى الى الوصول اليها ، فهى بهذا المفهوم ليست الا تعبيرا وانعكاسا للاتجاهات السائدة فى المجتمع ، هذا ولما كانت النظم التربوية منذ القدم تهدف دائما الى اعداد الفرد لنوع خاص من الحياة ، وتهيئته للتكيف والتلاؤم مع واقع حى وظيفى ، فقد تعددت الأنماط الثقافية والتربوية عبر التاريخ ، وأصبح لكل مجتمع أنماطه التربوية والثقافية التى تتلاءم مع أوضاعه ومطالبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فرأينا فى العصور القديمة تربية أسرية ومدنية، وفى العصور الوسطى تربية دينية وعالمية ، وفى أوائل هذا القرن تربية قوميه ودينية ، ثم أصبحت سياسية وعلمية وتكنولوجية فى العصر

الحديث . أما الآن فان المجتمع الاشتراكى حين يضع نظاما للتعليم لابد أن يكون هدفه اعداد المواطن الذى يتأثر بما طرأ على المجتمع من تغييرات، والذى يعمل من أجل تدعيم البناء الجديد للمجتمع ، والحفاظ عليه وربط حياته وتفكيره بالنظام الذى سيكون اطارا لحياته ونموه وازدهاره ومعيشته الواقعية ، لأن فكرة المجتمع الاشتراكى تطهير العقول والعلوم والفنون من رواسب التحكم بكل أنواعه ، والسيطرة بكل مظاهرها ، ولأن ما طرأ على هذا المجتمع الاشتراكى من تغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية يستتبع تغييرا جوهريا فى اعداد النشء عن طريق التربية والتعليم ، وعن طريق ثقافة تلائم النظام الاشتراكى ، وتصلح له .

وفى الباب الاول يذكر المؤلف كيف أن العالم يتجه الآن نحو الاشتراكية ، وأن المبادىء والأفكار التقدمية تنتصر فى عصرنا الحديث ، وبخاصة فى الدول النامية ، التى تحررت من السيطرة الأجنبية ، ومن قبضة الاستعمار ، ولقد تعددت نظم الاشتراكية ووسائل تطبيقها رغم اتفاق الناس جميعا فى فهم معناها الواسع ، وذلك لاختلاف ادراك الشعوب للفلسفة الاشتراكية وأسلوبها . وهى فى نظرنا محاولة لاقامة مجتمع ينظر فيه الناس بعضهم الى بعض كاخوة ، ويؤثرون التعاون على التنافس والتطاحن بمعناهما البغيض ، والاشتراكية فى نظرنا – فوق ذلك – أكثر التنظيمات الاجتماعية احتكاما الى العقل ، وأكثرها عدالة وكفاءة . وهناك أسباب كثيرة تفسر تحول الناس الى الاشتراكية : منها تطلعهم الى تحقيق الأمن المادى والأمن المعنوى لأفراد المجتمع فى ضوء التقدم العلمى السريع ، والتغيرات التى طرأت على التشكيل الاجتماعى، والمشكلات التى تواجه الطبقات الكادحة ، كانخفاض مستوى المعيشة بين هذه الطبقات ، وحرمانها من ساعات الفراغ والراحة . من أجل هذا كان لابد من التطلع الى النظام الاشتراكى كعلاج لهذه الحالات ، حتى يمكن فى ظله تغيير النظام الاقتصادى الذى حال دون سعادة المجتمع ، وهذا يستتبع تغيير المبادىء السياسية، والمفاهيم الثقافية ، ووضع نظام جديد للانتاج، وصور جديدة للحكم ، ومجموعة جديدة من القيم والأخلاق ، واعادة تنظيم الروابط الاجتماعية والاقتصادية لطبع المجتمع بالطابع الاشتراكى الجديد .

والمجتمع الاشتراكى فى حاجة الى الحرية الفردية والعقلية النقدية ، ويعتمد على الأصالة فى التفكير ، وعلى الذكاء العملى بأسمى معانيه . والذكاء لا يعتبر فى نظر الاشتراكية القدرة على الفهم أو على التأمل ، وانما يعتبر أداة للعمل ، وعن طريقه يتحقق الخلق والابداع فى ميادين التشريع والعلم والأخلاق لمجتمع تحددت سماته وصفاته وملامحه وأهدافه المميزة ، كما لا يخرج التفكير عن كونه صورة من صور العمل الهادف. وعلى ذلك تكون الحياة فى المجتمع الاشتراكى معناها العمل لتحقيق أهداف معينة ، تتطلب نشاطا مستمرا من نوع ونمط معينين ، وهنا يبدأ دور التربية فى قيادة الأفراد وتبصيرهم بالمشكلات الحقيقيه والواقعية التى تواجههم فى الحياة ، وفى خلق القيم الجديدة التى تجعل هدف الدراسة ليست شخصية الفرد السيكولوجية صاحبة الكيان المستقل ، وانما شخصية الفرد فى تفاعله المستمر مع الوسط أو البيئة التى تحيط به . وفى كل مجتمع يثور على الأنظمة القديمة ، ويختط نظاما جديدا . توجد مشكلتان رئيسيتان تتطلبان العلاج : أولاهما هى كيفية اعطاء المواطن العادى احساسا أكبر بالمساهمة فى نهوض البلاد ، وثانيتهما غرس المزيد من الاعتزاز بالنظام الجديد ، ولذلك تفرض الاشتراكية على المواطن بذل الطاقة لتحقيق الأهداف العليا ، والانتصار الدائم للفرد على نفسه لصالح الجماعة ، وتفرض على الدولة توجيه التعليم ومراقبته والاشراف عليه لتمكين المواطنين من الايمان بهذه المبادىء والعمل بها ، فرسالة التربية فى المجتمع الاشتراكى هى أن توضح للفرد الغرض الذى ينبغى أن يكافح من أجله ، والعدو الذى يكافح ضده ، وطريقة الكفاح التى يتبعها ، وتسلحه بالحرية الذى يجعل من تفكيره أداة للخلق لا أداة لتحصيل المعرفه ، وبذلك

تصبح العقلية النقدية فى المجتمع الاشتراكى عنصرا بناء لا عنصرا هداما ، تقدس الانتاج ، وترى فى العمل المحور الرئيسى لكل نشاط ، بشرط أن يكون عملا انتاجيا مثمرا ، يستمد طاقته المادية من الطبيعة لصالح الجماعة • ان العمل من أجل زيادة الانتاج هو أساس الفلسفة التى تقوم عليها الاشتراكية والثورة الاشتراكية فى ميدان التربية ضرورة حتمية،لأنها تمثل المصالح الحقيقية للأفراد ، الذين تتكون منهم الجماعة الانسانية •

وفى الباب الثانى يعقد مقارنة بين التربية القديمة التقليدية التى تهدف الى ادماج الفرد فى حياة الجماعة ، مع المحافظة على الأوضاع القائمة، والقيم السائدة فى المجتمع ، واعتبارها مقدسات ينشأ الفرد على احترامها ، سواء أكانت اجتماعية أم فنية أم اقتصادية ، وبين التربية الاشتراكية التى تطور مدلولها تطورا يغاير المدلول القديم للتربية ، ولم يعد مفهوما غير قابل للنقد أو التجريح ، ولم تعد قيمها تفرض على الناس عن طريق سلطة خارجية • وهذه التربية تهدف الى تنمية الحياة الاجتماعية ، بقصد تحقيق الانتقال من التجانس غير المنظم الذى كانت تفرضه التربية التقليدية ، الى التنوع المنسق على حد تعبير « هربارت سبنسر » وتهيئة الفرد واعداده لكى يتكيف مع الحياة فى المجتمع الجديد ، وتوعيته بالاتجاهات الجديدة لهذا المجتمع بقدر ما تسمح به امكانياته • وبهذا تعمل التربية الاشتراكية على تكوين وتنمية الوحدة العضوية للحياة الاجتماعية ، وادماج نشاط الفرد مع نشاط أقرانه ، بعيدا عن الأثرة والأنانية ، وبذلك تقود هذه التربية الفرد الى تقبل الواجبات الاجتماعية • فى حرية ، وتسوقه الى العمل والانتاج فى تناسق ، حتى يصل فى النهاية الى ما نسميه العقد الاجتماعى ، الذى يرضاه ويسعى الى تحقيقه كل مجتمع اشتراكى تقدمى •

والاتجاهات التربوية فى المجتمع الاشتراكى – الذى عقد من أجلها هذا الباب – ينبغى أن تحقق هدفين :

أ – العمل على اعداد الفرد للتلاؤم السريع مع الحياة الجديدة ، باندماجه فى الحياة الاجتماعية ، ومشاركته فيها مشاركة فعالة ، والعمل على اتاحة الفرصة للطفل كى يعتاد الاستقلال فى الرأى والتفكير ، ويتمكن من التكيف مع الحياة فى مجتمع دائم التطور •

ب – خلق الوعى الاجتماعى ، وتنمية الشعور بالمسئولية نحو الغير ، ونحو المجتمع •

والمدرسة بحالتها الراهنة لا تستجيب لظروف الحياة الجديدة لمجتمعنا الاشتراكى ، اذ انها لا تعرف الحياة الا عن طريق الكتب والدروس ، بينما يجب أن تكون المدرسة صورة مصغرة للمجتمع الحقيقى ، وأن تعمل فى نفس الوقت على التلاؤم مع طبيعة الطفل ، واعداد الشباب ، عمليا واجتماعيا وأخلاقيا للشعور بالتوافق مع الأوضاع والقيم التى تسود المجتمع الجديد ، فتكون المدرسة ميدانا لممارسة الحياة الاشتراكية الحقة بأسهام التلميذ فى تحمل تبعاتها ، وتفهم حقوقه • ومهمة التربية الاشتراكية خلق جيل جديد يكون أكثر تآلفا وتعاونا وميلا لحل المشاكل الاجتماعية ، دون رغبة أو رهبة • ثم تنمية شخصية الفرد وخلقة اللذين ستقاس بهما قيمته الاجتماعية ، ثم امتداد التربية الى ميادين كانت تعتبر حتى الآن على هامش الثقافة الحقيقية ، كالعمل اليدوى ، وبخاصة فى السنوات الأولى للطفل ، وازالة الفوارق بين العمليات العقلية واليدوية وفقيا لاحدث نظريات التربية من أن الانسان « يفكر بيديه » والذكاء العملى ليس أقل قيمة من الذكاء النظرى ، لأن العمل هو المصدر الوحيد للثروة فى المجتمع الاشتراكى ، ولذلك يجب اعادة النظر فى طرقنا التعليمية ومناهجنا على ضوء أهمية العمل اليدوى • وخلق مدرسة جديدة تلائم ظروف الحياة الجديدة لا تقوم التربية فيها على الخوف والنفاق والوصولية والمنافسة ، وتحديد المناهج بحاجة المجتمع وامكانيات الطفل وقدراته؛ فان الطفل منذ ولادته يجب أن ينظر اليه على أنه غريب بالنسبة لتركيب المجتمع ، ومن هنا كانت ضرورة التربية ليتكيف الطفل مع المجتمع الذى يعيش فيه ؛ ولا توجد تربية بدون مجتمع يرعى

نمو الطفل وبقاءه • فالتربية وسيلة الاستمرار الاجتماعى ، وهدفها ايجاد التوافق بين الكائن الحى (الطفل) وبين المجتمع الذى يعيش فيه • ولذلك يتحتم فى مرحلة الثورة أن يتولى المجتمع بناء المؤسسات التربوية ، لتدعيم البناء الجديد •

لقد كانت المدرسة وما تزال فى البلاد الرأسمالية أداة برجوازية للسيطرة والتحكم هدفها خدمة الطبقة الحاكمة ، أما فى المجتمع الاشتراكى فلا بد أن تتحول المدرسة الى أداة لتذويب الفوارق ، واعادة بناء المجتمع على أساس اشتراكى ، وأن تهيىء الفرص للتلميذ لكى يعيش فى المدرسة حياة « العمل الانتاجى » فتتلقاه كالعجينة اللينة لتهيئة للاندماج فى حياة الجماعة العاملة •

وفى الباب الثالث تناول التخطيط التعليمى للمجتمع الاشتراكى،وأبان أن كل ما أدخل على أنواع التعليم من اصلاحات لم يتجاوز السطح الظاهرى من اضافة بعض المواد أو زيادة بعض سنى الدراسة أو اختصارها ، مع أن المطلوب هو التغيير الجذرى فى نظم التعليم ومناهجه فى جميع المراحل ، وخلق روح تعليمية تتلاءم مع مجتمع اشتراكى حى ، تعمل على تنميته والدفاع عنه ، والحفاظ عليه • وكل ذلك يتحقق بتمتع الفرد بالبقاء أطول مدة بالمدرسة ، فيمتد سن الالزام حتى سن السادسة عشرة أو الثامنة عشرة مع التوسع فى كل أنواع التعليم ، وبخاصة أنواع التعليم التى تساعد على التقدم الزراعى والصناعى ووفرة الانتاج ، والعمل على تنمية قدرات التلميذ وامكانياته ليستخدمها فى صالحه وصالح الجماعة التى هو عضو فيها ، وتأمينه ضد العسر الاقتصادى بكافة أنواعه ، وضد المرض ، وضد الاضطرابات الانفعالية ، وضد العدوان الفردى أو الجماعى • ولأجل أن يضمن المجتمع الاشتراكى لكل فرد حياة كريمة منذ طفولته يلزمه أن يعمل على اقامة نظام للتعليم يحقق غرضين :

(١) تهيئة الفرص التى تتيح لكل فرد أن يحقق امكانياته الحاضرة والمستقبلة ، وذلك يجعل نظام التعليم من المرونة بحيث يستجيب الى ميول الأطفال المتعددة •

(٢) ينبغى ايجاد نظام موحد للتعليم يجد فيه جميع الأطفال فرصا متعادلة ، واتاحة الفرصة لكل طفل حسب استعداده ليفيد من عناصر الثقافة فى المجتمع الذى يعيش فيه ، واعداده اعدادا انسانيا متكاملا بكل ما تحتويه كلمة الانسانية من معان •

ان الاشتراكية تتطلب تعليما متعدد النواحى يشمل دراسة الأسس العلمية العامة لجميع طرق الانتاج ، واستخدام الأطفال للأجهزة أو الأدوات والآلات التى تستعمل فى الصناعات المختلفة ولذلك يجب أن تكون المدرسة متعددة النواحى فى مراحلها الاولى ، ويتحتم أن يمارس التلميذ فيها النشاط اليدوى فى « ورشة المدرسة » أو فى المصانع المجاورة • والمدرسة المتعددة النواحى هى وسيلة المجتمع الاشتراكى فى اعداد العمال المهرة والصناع الممتازين ، وهى التى تحقق المبدأ الاشتراكى القائم على الصلة والرابطة بين هذه العناصر الثلاثة : العمل ـ الطبيعة ـ المجتمع . وفى المرحلة الثانوية يتحتم التخلى عن نظام تقسيم الثقافة ، والفصل بين الأقسام الذى ينتهى بامتحان الثانوية العامة ، وأن نقرر تعليما منسقا يصل الى نهاية موحدة تستجيب للاتجاهات الحديثة فى المجتمع ، فينقسم ثلاثة أقسام ـ القسم التكنيكى ـ قسم العلوم ـ قسم الآداب والفنون • ويجب أن تكون هذه الأقسام الثلاثة متعادلة فى القيم بالنسبة للحياة الاجتماعية • أما فى التعليم العالى والجامعى فبجانب اعداد النخبة الممتازة من المفكرين ، لابد لنا من نخبة ممتازة من أصحاب الذكاء العملى ، وأصحاب الأفعال لا الأقوال ، ولابد أن تتجه الجامعة نحو ثقافة جديدة تعمل على تنظيم المجتمع ، وازدهار العمل الانتاجى ، وأن يكون التعليم فيها مباحا للجميع على أساس الاستعدادات الفردية ، والقيمة الثقافية للفرد ، وأن تترك للتعليم العالى مهمة تخريج الفنيين ذوى الكفاية للنهوض بالبلاد فى مجالات الصناعة والزراعة والتجارة •

وتناول المؤلف فى الباب الرابع المناهج فى المدرسة الاشتراكية فقـــال : تتطلب التربية الاشتراكية أن يكون للمناهج وجهان : أحدهما يتصل بالثقافة العقلية بالنسبة للفرد ، والثانى يتصل بالثقافة الاجتماعية بالنسبة للجماعة . والمناهج الاشتراكية تتخذ ميول التلاميذ نقطة بداية ، وتعمل على تنميتها ، واتساع دائرتها داخل الاطار الاجتماعى ، ويجب أن يكون الهدف الذى يعمل من أجله المعلم والتلميذ هو «أن المعرفة فى خدمة المجتمع» ، وان غايتها العمل على رفاهية المجتمع عن طريق العمل والانتاج ، وأن مهمة « مدرسة العمل » هى اعداد المواطن الذى يكافح من أجل بناء وحماية النظام الاشتراكى ، وأن هدف المناهج الاشتراكية هو أن يتعلم الطفل فى المدرسة كيف يتصرف على الطبيعة الخارجية، وبالذات كيف يستغلها ويستثمرها بالعمل .

وتكلم فى الباب الخامس عن طرق التدريس فى التربية الاشتراكية فذكر أن هذه التربية تطالب باحلال العمل محل التعليم ، أو بعبارة أصح بالتعليم عن طريق العمل،وذلك باحلال العمل الجماعى محل التعليم الجماعى باستخدام « طريقة المشروع » . واحلال العمل بطريقة الجماعات والتعاونيات المدرسية محل التعليم المتبادل ، ثم أفاض بعد ذلك فى شرح العمل الجماعى وطريقة المشروع ، وخلص من هذا الشرح الى أن أساس التربية الاشتراكيه السليمة هو الدراسة بطريقة الجماعات ، حيث تفنى شخصية الفرد ، وتنمحى أنانيته فى سبيل المجموع ، أو بطريقة التعاونيات المدرسية التى تكون شخصية الفرد باسهامه فى تحمل الأعباء والمسئوليات .

وفى الباب السادس قال : لابـد للمجتمع الجديد من معلم جديد ، فينبغى توجيه العناية الى اعداد المعلم الاشتراكى ، الذى هو رائد الثورة التربوية ، ولن يكون عمل هذا المعلم القاء مجموعة من القيم والمعارف التى يرى فيها خير التلميذ فحسب ، وانما يتحتم عليه أن يساعد كل تلميذ على اكتشاف وتحقيق التركيب الجـديد الذى ستتكون منه ثقافته الجديدة ، واعداده للعقلية المشتركة ، وأن ينسق بين الاعداد الاشتـراكى لتلاميذه وبين المادة التى يدرسها . والواقع أن الغالبية من المعلمين لايزالون يعتقدون أن رسالة المدرسة هى تلقين التلاميذ الأفكار والمعلومات والحقائق التى حددتها المناهج ، والحقيقة أننا فى هذه المرحلة من مراحل تطورنا لايمكننا الا أن نستنكر طرق التعليم والتربية التى لاتتجه نحو اعداد المواطن الجديد . والمعلمون ليسو دائمـا على معرفة بالفلسفة الجديدة لمجتمعنا الاشتراكى ، بالرغم مما يوزع عليهم من منشورات وتوجيهات ومحاضرات ، ولايزالون تنقصهم الدراسة العميقة الجـدية لأصول وفلسفة التربية الجـديدة . اذ من أهم واجباتهم أن يدركوا – أولا وقبل كل شىء – أن الاشتراكية نظرية اجتماعية تربوية ، شديدة الارتباط والصلة بتطور مجتمعنا الحالى، فعلى المعلمين سواء فى معاهد المعلمين أو كليات التربيه أن يدرسوا مذهبنا الاشتراكى بدقـة وعناية ، وأن يمحصوا مدلولاته ومفاهيمه التربوية الجديدة ، ولن يكون المعلم صالحا لعمله فى الميدان الجديد الا اذا كان اشتراكيا ، متحليا بصـفة القيادة ، ملما بطرق التربية الجماعية ، ذا ثقافة جامعـة طابعها حب العمل ، وأن يكون لديه الاستعداد الكافى لكى يفيد ويستفيد من وسائل الاعلام الحديثة ، وأن يجعل نصب عينيه دائما أن أهداف التربية هى أهداف الحياة .

وفى الخاتمـة التى كتبهـا المؤلف فى ذيل كتابه قال : لن تكون هناك ممارسـة ثورية اشتراكية بدون نظرية تربوية اشتراكية ، وان المدرسة هى أولى المؤسسات التى تعد الأفراد للحياة فى المجتمع الذى ننشده ، والمدرسة الاشتراكية توجه الطفل نحو (التكنيك) وعن طريقه الى الرفاهية التى يجلبها الرخاء الاقتصادى، ولهذه المدرسة نتائج تربوية هامة : فهى تخضع العلم الحقيقى للانتاج ولاتعترف بالعلم النظرى وحده ، أو العلم لمجرد العلم ، ثم هى تجعل النشاط العقلى يبحث دائما عن المفيد والمثمر ، اما البحث العقلى الخالص فلامكان له فى المدرسة الاشتراكية .

محمود الجرسى



الشعر المصرى بعد شوقى

(الحلقة الأولى)

تأليف
الدكتور محمد مندور

الناشر : مكتبة نهضة مصر
١٣٠ صفحة قطع متوسط
ث : ٢٥ قرشا



كتاب الشعر بعد شوقى فى الحلقة الأولى جدير بالوقوف عند كل سطر من سطوره وقفة تأمل ونقاش ٠٠ فبالرغم من أنه كتاب جمع عدة محاضرات عمادها الاطالة والشرح الا أن السيد المحاضر أو المؤلف آثر التركيز على الاطالة .. فحتم على القارىء أن يظل على قدر من الافاقة أمام كل لفظة قيلت، أو كل قضيه أثيرت ـ وما أكثرها.. ولكنها افاقة مستحبة ٠٠ فهى تجهد الذهن فى غير املال بل بتفاعل وحمية ينسيان القارىء ما أرهقه ٠

يبدأ الدكتور مندور كتابه بفصل عنوانه « بين القديم والجديد » ٠٠ ليثير فيه قضية هامة هى أن الشعراء الشبان الذين ثاروا على امارة شوقى للشعر لم تكن قدراتهم أو ملكاتهم الشعرية واحساساتهم الموسيقية بالقوة التى تقيم للشعر امارة غير امارته ٠٠ ذلك على الرغم من تسلحهم بالثقافة الغربية الواسعة ٠

وكل الذى أمكنهم تحقيقه هو أن وجهوا الأذهان الى شعر عربى حديث ذى وجهات انسانية أكثر خصبا واصالة ٠٠ ومن ثم فانهم أقرب الى النقد والتوجيه منهم الى الاشعار والابداع ، حتى خليل مطران فبالرغم مما كان يتمتع به من موهبة شعرية مبدعة ٠٠ الا أن أشعاره لم تتغلغل فى صفوف الشعب نظرا لما فيها من تركيب دقيق مغلق وبعد عن مشاكل المجتمع ٠٠ ثم يستشهد المؤلف بقول للعقاد فى تلك الآونة حول مفهوم الشعر ٠٠ « الشاعر العظيم من يشعر بجوهر الاشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها، وفرية الشاعر ليست فى قوله لك عن الشىء ماذا يشبه ، وانما مزيته أن يقول ماهو ، ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به » ٠ ثم يفرد الدكتور مندور بابا للنقد التطبيقى الذى رفع رايته كل من العقاد والمازنى فى كتابهما « الديوان » ٠٠ حيث نجد فيه نداء جديدا يحتم على الشعراء أن يلتزموه ٠٠ ألا وهو « الوحدة العضويه أو المعنوية للعقيدة » ٠ والاهتمام بالجواهر لا الأعراض فى بنائها ، ويلزم الشعراء المحدثين بالتخلص من نهج القدامى وما سار عليه أعلام

حركة البعث الأدبى مثل البارودى فى الشعر وعبد الله فكرى فى النثر والشيخ حسين المرصفى فى النقد .. ولو أن أغلب ما وجه من هجوم كان موجها الى الشعر خاصة الا أننا نستطيع أن نرجع هذا الى عامل طغيان شعر شوقى وحافظ على كل ماعداه من مجالات الأدب • لكن الدكتور مندور يرى فيما وجهه كل من العقاد والمازنى الى الشاعرين من نقد بل وتقريع قد جانب الصواب وكان أقرب الى التجنى والهدم منه الى الانصاف والبناء .. واستشهد فى ذلك ببعض أبيات لامراء فى تكامل ابداعها الفنى ليبرز مقدار هذا الحامل الذى ارتكبه أصحاب مدرسة التجديد.. كقول شوقى :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
قبر أبر على عظامك حان

وقوله ..

بالله فتش عن فؤادك فى الثرى
هل فيه آمال لنا وأمانى •

وحين يقول ..

دقات قلب المرء قائلة له
ان الحياة دقائق وثوان •

ثم يضيف المؤلف الى ذلك قائلا .. ان الخلاف بين أنصار الجديد وأنصار القديم كان حول ديباجة الشعر وخصائصها ، وحول المعانى التى يباح التجديد فيها .. ثم قيمة هذه المعانى من الوجهتين الانسانية والجمالية •

لكننا هنا لانستطيع أن نحكم - كقراء - لصالح طرف من الطرفين .. حكما عادلا الا من خلال توضيح أمور ثلاثة .. أولها .. طبيعة المرحلة التى عاشها الطرفان • وثانيها .. مدى التفاعل والاستجابة بين كل من الطرفين وبين متلقى انتاجهما وقتذاك من أبناء المجتمع العربى • وثالثها .. هل كان اقتصار النقد على الشعر وتجديده مرجعه الى قوة الشاعرين وشاعريتهما، أو لاحتياج الفكر الى هذا النوع من الابداع احتياجا ملحا •

ولذا فانه يصبح من حقنا استجلاء موضوع هام هو هل فى استطاعة الناقد نقد نتاج أدبى لمرحلة سابقة .. دون أن يجرب معاناة الانتاج الادبى ، ودون أن يمنع مؤثرات عصره الذى يعيش هو فيه .. أو يكفينا فى هذه الحال أن نفسر ونحلل فقط ؟ ..

هذه أسئلة اعترضتنى وأنا أواصل قراءة الباب الثالث من الكتاب عن الشعر التقليدى .. اذ نجد أن المؤلف قد جار على شاعرية الجارم فلم يدع له متنفسا لحسنة .. الأمر الذى جعلنى أشفق عليه من هذا الجور ، وأستحلف الناقد متسائلا .. من هو الشاعر أو الأديب الذى ظل طوال حياته الأدبية على مستوى رفيع من الاجادة وحسن الاختيار لم ينخفض عنه ولو مرة .. ؟ فما بالك بالجارم الذى محوت عنه أى ذرة من الاحساس الشعرى على الاطلاق !!

أما اذا انتقلنا الى الفصول الثلاثة التالية لوجدناها قد انصبت على شاعرية كل من العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى ، ونقدها نقدا تطبيقيا .. هدانا فيها الدكتور مندور الى نماذج ونتف من أشعارهم .. ثم عمل بمشرطه تشريحا وتفنيدا .. تارة بالتحليل الدقيق ، وأخرى بالتأويل البعيد .. واستهل هذا كله بمسلمة نافية .. فأنكر عليهم أنهم درسوا فى مطلع شبابهم دواوين الشعر الانجليزى فى أصولها.. وانما كان منهلهم مجموعة المختارات الشهيرة عند الانجليز باسم « الكنز الذهبى » التى قد كان جمعها فرانسيس پالجريف طبقا لمنهجه فى الشعر المتميز بالذاتية أو الوجدان .. فاقتصر فى جمعه لمواد الكنز الذهبى على الشعر الغنائى ولم يفسح مجالا للموضوعى من الشعر• ويخرج الدكتور الناقد من هذا بحكم قاطع .. هو اقتصار هؤلاء الشعراء الثلاثة على الوجدان فى شعرهم .. لكن خليل مطران المعاصر لهم هو الذى تميز عليهم بولوجه مجال الموضوعية ..

ويقتضينا الأمر هنا أن نعرف أولا ماهية الوجدان أو الذاتية ، ثم نطابق بين هذا الحكم القاطع وبين نتاج هؤلاء الثلاثة • فيقول الدكتور

مندور أن شعراء مدرسة التجديد قد اختلفوا فى معنى الوجدان ومضمونه .. فمن البين أن يجد الشاعر فى أعماقه أو وجدانه فكرا ، وقد يجد عاطفة وقد يجد خيالا كذلك .. فمضمون الوجدان هنا متفاوت الأشخاص ..

لكننا لو التزمنا المنهج العلمى فى دراسة النفس .. لعرفنا أن التفكير مجرى من المعانى التى تثار فى المجال الذهنى ازاء موقف ما ، وأن هذه المعانى يتم تكوينها بعمليات عقلية رتيبة هى التجريد والتعميم والتصنيف .. ووساطة كل هذا رموز لغوية تكثر أو تقل تبعا لمدى تجرد المعنى عن الأعراض الحسية الفردية .. ومن هنا نلمس مدى الأصالة الكامنة فى الجوهر دون العرض ، فندرك مدى الصدق النفسى الذى دعت اليه مدرسة المجددين فى الشعر .. أى أن تفاوت المضمون الوجدانى لدى الشعراء الثلاثة لايؤثر بحال على جوهر مذهبهم فى تجديد الشعر .

فاذا ما تذكرنا أن عملية الابداع الشعرى – كما يقول هيجل – يستعين الفنان لها بعقل ايجابى نشط وحساسية حية عميقة ، وأن خطوات الابداع الشعرى عبارة عن وثبات متتالية لتكوين كل مترابط .. لقدرنا مدى أهمية دعوة العقاد لبناء شعر عربى جديد .. على أساس علمى راسخ .. آلا وهو أساس الوحدة العضوية للقصيدة .

ولننتقل سويا الى فردية العقاد وذاتيته ..

ونتبادل الرأى معا .. هل الذاتية عيب من عيوب الشاعر أو حتى الناقد ان كان صاحب مبدأ فى مفهوم ما ينقده !! ؟ .. اننى أجد الاجابة على تساؤلى عند تولستوى حين يقول .. «طالما تخيلت نفسى رجلا عظيما يكتشف الحقائق لخير الانسانية .. فكنت أنظر لسواى من الآدميين وأنا أشعر بقدرى » . وهاهو جوركى ينفعل بما يقارب هذا المعنى فيقول .. « كنت أرى أننى فهمت وأحسست أشياء معينة بطريقة تخالف طريقة الناس وفى ذلك الحين بدأ الناس بالفعل ينظرون الى كقصاص مشوق » . فذاتية العقاد هنا لم تكن قاصرة أو سلبية .. وانما هى كحال كل عبقرى يحقق من خلال «الأنا» خير « النحن » وهذا هو ماحدث فعلا ويحدث الآن فى تيار الأدب .

ومن خلال هذا المفهوم كان لابد أن ننظر الى شعر مدرسة العقاد ، وأن نلتزم جانب الانصاف فلانبتر عنصرى التفاعل كما وجدنا فى الكتاب حين يقول « أثر المحدثون فى مدرسة الديوان – أى مدرسة العقاد – دون أن تؤثر هى فيهم » .

ثم نلمس طوال عملية النقد التطبيقى لشعر العقاد أن الدكتور مندور قد التزم بالمذهب التأثرى فى النقد .. اذ أخذ يبرز فى كل صفحة فكرة أن الجانب العقلى لدى العقاد قد تغلب على شاعريته فأبعدها عن الرقة والحساسية المتطلبتين لكل قصيد ، وأن كبرياءه واحساسه بعظمته مع غفلة الناس عنها قد شغلاه عن محاولة الاجادة فى شعره .. ولا أدرى لم يحضرنى هنا شبح المتنبى شامخا بأنفه ليباهى بشخصه شعرا لايبارى فى مجال الفخر جودة وجزالة .. أما ان كان هذا البيت يعجب أو لايعجب .. فأمر هذا موقوف على مدى التذوق وكيفيته .. وهنا يكون طريق النقد قد قطع عند ثلثه فقط .. فلا صلة لنا فى اقناع أحد كى يعجب بهذه الأبيات القائلة:

والشعر ألسنة تفضى الحياة بها
الى الحياة بما يطويه كتمان
لولا القريض لكانت وهى فاتنة
خرساء ليس لها بالقول تبيان

أو حتى وهو يصف الأحجار تحت ضوء القمر فى أسوان مثلا ..

ولما رأوها يشبه الخلق صنعها
تغالوا فقالوا الانس قد مسخت صخرا
لقد أكبروا الا على الله خلقها
فقالوا براها ، ثم أصمتها قهرا .

ذلك لأن الجلال والجمال فى هذه النماذج وغيرها لايصح أن يوجه النظر اليها ، وانما يحس بها ، ننفعل بها ليتردد صدى معانيها فى

جنباتنا . ولن يتحقق هذا الا اذا كانت درجة استيعابنا من الرحابة لتسمح باكمال عملية النقد .. حتى لانقتصر على جانب ايديولوجى أو آخر تأثرى .. وهاهو ذا أستاذنا الدكتور يضىء لنا الطريق الى شعر عبد الرحمن شكرى وشاعريته .. وذلك فى دراسة نقدية منصفة .. تبرز لنا عناصر الجمال لا القبح مع غوص وراء المصادر والأهداف .. فعرفنا أنه قد جمع بين الفكر والعاطفة الشاكية للذين اقتسمهما كل من العقاد والمازنى .. فأصبح شعره معروفا بالتأملات النفسية أو الاستبطان الذاتى .. لكنه استبطان مشوب بتشاؤم ممض يرده المؤلف الى مالاقاه من عنت واضطهاد ، وما قوبل به من جحود ونكران، ونتيجة يأس من تغلب الخير على الشر لدى الناس .. والواقع أن اعترافات عبد الرحمن شكرى التى بنى عليها الدكتور مندور نظريته هذه لاتكفى لسبرغور هذا الشاعر .. لأننا نعرف أنه كان يعيش معيشة رغدة ، وكان يتمتع بشخصية قوية الارادة تدفع به الى تحقيق آماله العراض .. لكنه لايغتر بالنجاح بل يسخر منه ويقول محدثا اياه

أنت سحر يكسو القبيح جمالا
وينيل الوضيع أفق العلاء
وينيل القمىء أجنحة النسر
فيغدو لقومه كسماء

وانما الأرجح أن تشاؤمه راجع - كما يقول الأستاذ على أدهم - الى دخيلة نفسه هو .. لأنه « رجل متشائم بمزاجه لا بتفكيره ، ومرد النغمة الحزينة السارية فى اشعاره الى هذا المزاج المتشائم المتطير » . فهاهو ذا يقول واليأس يطغى على نفسه ..

كم قد أسفت على الدنيا وباطلها
فما أسفت على شىء سوى الأسف
وكم سخرت من الاقدار فى صلف
فما ندمت على شىء سوى الصلف.

ثم يشير فى آخر الكتاب الى جماعة أبوللو اشارة عابرة لايتسع لها مجال الكتاب .. لكنه أنبأنا بأنها مدرسة تعتبر امتدادا للشاعر خليل مطران .. خاصة وأن مؤسسها أحمد زكى أبو شادى كان من المنتمين الى موضوعيته فى الشعر .

وعند هذا الحد ينتهى الكتاب بعد أن شحن أذهاننا بهذه القضايا الفكرية .. ليحيلنا الى أصول هذه الأشعار ودواوينها .. لا كقراء وانما كذواقة .. نتلذذ بهذا ونأنف من ذاك ، دون أن نشيح الطرف عنه ، بل نزيح الغشاوة من فوقه.. ويكفى الكتاب ومؤلفه فخرا بهذا .

جمال بدران

سطور من كتاب ....

«أبا الرحمات ، لم أيقظتنى من الارض الصامتة وحكمت علىَّ بلعنة الميلاد ؟
لم انتزعتنى من السكون ، واختطفتنى من الظلام، وخلقت من نورك عطية جحودا ؟
لم دفعت الى الوجود كائنا هو نقيضك ،ونفخت الشقاء فى قطعة من الثرى ؟ »

.... الوالد والولد

نظرة فى إعادة كتابة تاريخنا القومى

١ ــ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ (الجزء الأول) .
تحقيق وتقديم : الدكتور محمد أنيس .
القاهرة . مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣ ــ ٣٢٢ صفحة .

•

٢ ــ ثورة شعب .
تأليف : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .
القاهرة : دار النهضة العربية ١٩٦٤ ــ ٣١٤ صفحة .

٣ ــ لطفى السيد والشخصية المصرية .
تأليف : الدكتور حسين فوزى النجار .
القاهرة . مكتبة القاهرة الحديثة ــ ١٩٦٣ ــ ١٥٩ صفحة .

•

٤ ــ حديث الأجيال .
تأليف : محمد على غريب . تقديم : الدكتور عبد اللطيف حمزة .
القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٣ ــ ١٢٩ صفحة .

من الشواهد الحسنة التى تدل على نضج الوعى الوطنى لدى الجيل الحاضر ، ما جرى فى الآونة الأخيرة من اهتمام بدراسة تاريخ الحركة الوطنية ، ومراحلها التى توالت خلال القرن الذى مضى والقرن الذى نعيش فيه . ولقد مرت دراسة التاريخ المعاصر بمراحل صعبة ، وذلك نتيجة لعوامل عديدة . أهمها :

أولا : ما جرى من زيف وتضليل على أيدى المؤرخين من علماء الاستشراق ودعاة الفكرة الاستعمارية ، وبخاصة ابان عصر الاحتلال .

وثانيا : ما قامت به السراى وبخاصة فى عهد الملك فؤاد من شراء ذمم بعض المؤرخين والعلماء من المصريين والأجانب .

وثالثها : يتصل بالعاملين السابقين ، وهو تارجح المؤرخين من رواد المدرسة المصرية الحديثة بين الأحزاب السياسية ، على اختلاف ميولها ونزعاتها ، والصلات التى تربط بعضا منهم برباط وثيق ... ومريب بقصر عابدين وقصر الدوبارة .

بيد أنه كان من النتائج التى ادت اليها الثورة المصرية الكبرى ١٩١٩ أن بدأ اهتمام الجيل الجديد من المثقفين وحملة الأقلام بدراسة التاريخ الحديث للشعب المصرى ، دراسة واعية تنم على شعور فياض بالوطنية ، وحرص على الأمانة الفكرية والولاء العظيم . ولكن هذه المدرسة الوطنية الواعية لم تكن لتتحرر تماما من رواسب الماضى ورواسب السياسة الحزبية . ومع هذا فانها ادت واجبها بقدر ما تستطيع ، وكان هذا الدور من علامات الطريق فى دراسة نهضتنا الوطنية الحديثة .

هذه المدرسة التى نتحدث عنها ، تدين بوجودها الى ثلاثة من الرواد أو اربعة ، وهم عبد الرحمن الرافعى ومحمد صبرى ومحمد شفيق غربال ... ثم محمود فؤاد شكرى .

وقد أتى بعد هذا الجيل جيل آخر من المؤرخين « استطاع ــ فى ظروف احسن ــ ان يكون ادق فى حكمه بالنسبة للجيل السابق عليه . ولكنه رغم هذا لم يسلم من الميول والأهواء ورواسب السياسة الحزبية القديمة . والاتجاه السائد لدى مؤرخى هذه المدرسة

ينحصر فى أمرين . الأول : دراسة تاريخ الحركة الوطنية من خلال تاريخ الأحزاب التى أسهمت فى هذه الحركة ، وتراوحها بين القوى السياسية المسيطرة فى هـذه المرحلة . والاتجاه الآخر : هو دراسـة حركة المقـاومة الشعبية والأجهزة السرية خارج نطاق الأحزاب .

على أن كلا الاتجاهين لا يستغنى عن اتجاهين آخرين هما من اللوازم الأساسية ، ونحن بصدد اعادة كتـابة تاريخنـا القومى . الأول : هو الاهتمام بالصـحافة الوطنية التى نشأت فى بلادنا منذ عصر اسماعيل ، فلقد كانت هـذه الصحافة على اختلاف نزعاتها تعبر أصدق تعبير عن هـذه النزعات . فكانت كل من صحيفتى المقطم ومصر تعبران عن وجهة النظر الاستعمارية وكانت اللواء والدستور تعبران عن وجهة النظر الوطنيـة فى اطـار العثمانية . وبين هذين الاتجاهين كانت تقف الأهرام التى كانت تميل – بحكم أن مؤسسيها من أهل الشـام – الى فرنسـا . وكانت المؤيد هى صحيفة القصر . فى حين كانت الجـريدة تعبر عن وجهـة نظر المثقفين وملاك الأراضى فى الفريق المعتدل .

والاتجاه الآخر : وهو يختص بتـاريخ الحركة الوطنية فى أعقاب الحرب العظمى الأولى ، فالى جانب دراسة اتجاهات الأحزاب السياسية منذ تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، يجب أن ننتبه الى ظاهرة هامة جدا ، وهى دراسة تاريخ الحركة الوطنية عن طريق الشخصيات التى كان لها دور هام فى هـذه الفترة . لأن الأحزاب السياسية ليست مقياسا يسلم من النقد . وذلك لسببين . الأول : وهو التلون الذى أصاب بعض هـذه الشخصيات فى الظروف المختلفـة ، فصدقى باشـا كان فى أول أمره من المؤسسين للوفد المصرى الذى يرأسه سعد زغلول ، من أجل الحصول على استقلال مصر استـقلالا تاما ، وكان أحد أربعـة ذهبوا الى المنفى فى مارس سنة ١٩١٩ . ولكن لم يلبث أن خـرج على الوفد فى خلال هذا العام ، ثم انضم الى حزب الأحرار الدستوريين برئاسة عدلى يكن ، ولكنه لم يلبث ان اسس حزب الشعب الذى خرج به على أجماع الأمة ، وكانت فترة حـكمه الأولى ١٩٣٠ – ١٩٣٣ هى العهـد الأسود للدستور وللحياة النيابية فى مصر .

الى جانب هذا الفريق ، يوجد فريق آخر تلاءم مع الظروف وأن لم يصبه التلون الدفين . هذا الفريق يمثله بوضوح احمد لطفى السيد ، فقد كان من زعماء الفريق المعتدل قبيل الحرب العـالمية الأولى ، ثم انضم الى المتطرفين بعد الحرب ، وشارك مشـاركة فعالة فى النضال الوطنى الـذى انتهى بتصريح ٢٨ فبـراير . ثم خرج على الوفد ، ولكنه لم يشارك فى الأحزاب السياسية التى توالت بعد التصريح ، وكان فى الفترة السـابقة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من المعارضين لمعاهدة قصر الزعفران ١٩٣٦ ، ثم اتفاق صدقى – بيفن ١٩٤٦ .

ومن هنـا تبدو أهمية كتاب فقيدنا العظيم عباس محمود العقاد عن الزعيم الخالد « سعد زغلول » ، وكتاب الدكتور حسين فوزى النجار عن « لطفى السـيد والشخصية المصرية » . هذا الكتاب الذى نحن بصدده الآن .

وبالمثل فانه من الصعب جدا أن نحكم حكما مطلقا على حزب من الأحزاب ، وهـكذا يبدو الخطأ الذى وقع فيـه صاحب كتاب « حديث الأجيال » . فانه افترض أن حزبا مثل الحزب الوطنى ، هو الذى كان يمثل الوطنية الصادقة ، لا لشىء الا لأنه سار على هدى مبادىء الزعيم مصطفى كامل . لأن الحقيقة ان زعامة الحزب الوطنى للحركة الوطنية فى مصر قد انتهت على حسب ما يبدو من كتاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى – وهو أحد كتاب هذا الحزب ومن قادته المعروفين – انتهى هذا الدور عند الشرارة الأولى للثورة المصرية ١٩١٩ . بل ان هناك نقطة هامة أغفلهـا كثير ممن أرخوا للحركة الوطنية وللأحزاب التى خرجت منها . هذه النقطة هى أن الأحقـاد الشخصية ثم الحزازات الحزبية قد غيرت موقف رجال هذا الحزب بعد الثورة ، لأنهم وجدوا أن الحركة الوطنية وتأييد جماهير الشعب أضـحى احتـكارا فى ايدى القيادة الوطنية الجديدة التى يمثلها حزب الوفد . ومن

هنا كانت بعض عناصر الحزب الوطنى ذات اتصال وثيق برجال القصر وبالأخص الأمير عمر طوسون ، حتى أن النيـة اتجهت وقتئذ الى تشكيل وفد آخر ينافس الوفد الذى اختارته الأمة والجمعية التشريعية الممثلة لها . فكان هذا عاملا على تفتيت القاعدة الوطنية وانصراف الأذهان عن اهم قضايا الوطن .

ونحن لا ننحاز الى حزب من هذه الأحزاب انما الحقيقة ــ كل الحقيقة ــ ان الحزب الوطنى كان له دوره المشرف فى عهد زعيميه الكبيرين مصطفى كامل ومحمد فريد ، وينتهى هـذا الدور باندلاع الثورة ووفاة محمـد فريد فى المنفى . اما حزب الوفـد فمن الممكن ان نعتبر دوره الوطنى العظيم قد انتهى فى كثرته بوفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ ، ثم تلاشى تماما هذا الدور سنة ١٩٤٢ .

وهـكذا تبـدو لنـا ثانية اهميـة دراسة الشـخصيات وتراجم العظمـاء ، الى جانب دراسة المصادر التاريخية الأخرى .

ويظهر شىء آخر من خـلال كتاب الأستاذ محمد على غريب ، هذا الشىء هو ان الأسلوب الصحفى قد يسىء ــ فى بعض الأحيـان ــ الى الحقائق التاريخية الصحيحة ، أو هو قد يأتى لنا ببعض القشور أو يذكر أسماء الأشخاص فى خبط وخطـأ كبيرين ، فى حين أن الرجوع الى ابسط كتاب يتناول تاريخنا المصرى يغنينا عن هذه السقطات .

وعلى خلاف هذا الكتاب يبدو لنا « دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ » من أحسن الكتب التى تناولت تاريخ الحركة الوطنية فى وقت من أحرج اوقاتهـا ، فالمعروف أن الدكتور محمـد أنيس من الدارسين الذين توفروا منـذ بعيـد على دراسـة التاريخ المصرى ، وكان من أوائل من التفتوا الى اهمية الوثائق فى دراسة هذا التاريخ وفى العـام الماضى صـدر كتابه عن المراسلات بين مصطفى كامل وولاة الأمـور فى السراى . أما الكتاب الذى نحن بصدده الآن فقد كان فى الأصل مقالات نشرها بجريدة الأهرام فى سنة ١٩٦٣ ، تناول فيهـا جانبا واسعا من هذه المراسلات التى دارت بين سعد زغلول رئيس الوفد وعبـد الرحمن فهمى سكرتير اللجنة المركزية للوفد .

والمفروض فى الكتاب ــ كما يبدو من عنوانه ــ أن يقتصر على المراسـلات بين سـعد زغلول وعبد الرحمن فهمى . ولكن الأستاذ المحقق لم يلبث أن قسم هـذه المراسلات الى مجموعات ثلاث . الأولى : وتضم خطـابات سعد زغلول الى اللجنة المركزية للوفد . والثانيـة : تضم تقارير عبـد الرحمن فهمى الى سعد زغلول . والثالثة : تضم خطابات لسعد زغلول وعلى ماهر ومحمد كامل سليم ، وخطابات واوراق اخرى . هذه المراسلات تمت فى غضون عام الثورة والعام الذى يليه .

وفى مقـدمة الكتاب تنـاول الأستاذ المحقق حيـاة عبـد الرحمن فهمى ، وأوضح ظروف نشأته الوطنية ، والدور الكبير الذى قام به ابان الثورة المصرية والحركة العمالية ، ثم الظروف التى أدت الى انفصـاله عن الوفـد . وشرح ما استنبطه من خلال المراسلات ، وقد وفق فى هذا كله الى حد بعيد .

والدكتور محمد انيس اسـتطاع ان ينجح كأستاذ متخصص فى التاريخ الحديث ، فى حين أن الدكتور سـعيد عاشور يمثل وجهة نظر أخرى . وكتابه « ثورة شعب » مجهود طيب من استاذ غير متخصص ، والمهم فى هذا الكتاب أنه يحوى دراسـة تفصيلية لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، تشغل الجانب الأكبر منه فتحدث عن أسباب الثورة ، والمقدمات التى أدت اليها ، ثم قيامها والأهداف الجليلة التى تحققت بفضلها . وهو يطالعنا لأول مرة بمعلومات طريفة واسرار لم نقف عليها فى بعض الكتب التى تناولت عهد الثورة .

غير ان الـكتاب من نواح عديدة يحمل طابع الذكريات ، وهو فى عرضـه لتـاريخ الحـركة الوطنية ، قد ينحاز الى وجهة نظر معينة ، هى وجهـة نظر رجال الحزب الوطنى ، وان لم يكن بذلك الوضوح الذى يبدو من كتاب « حـديث الأجيال » . وعدا هذا فان الكتاب مفيد ومناسب للقـارىء غير المتخصص وللجمهور على وجه عام .

وإذا كنا لا نستطيع دراسة حركة الجامعة الإسلامية دون الرجوع الى جمال الدين الأفغانى ، كما انه لا يمكن دراسة حركة الجامعة العربية دون الرجوع الى عبد الرحمن الكواكبى ... وعزيز على المصرى . فانه لا يمكن دراسة حركة الجامعة المصرية دون الرجوع الى أحمد لطفى السيد ، ومن هنا يبدو أثر التراجم وعبقرية البطل فى سرد أحداث التاريخ .

ولطفى السيد من ابرز رجالات النهضة المصرية ، وابعدهم اثرا فى ميادين الفكر والسياسة والأدب ، وليس بعجيب أن يكون من جملة الزعماء والعباقرة من رجال الاصلاح الذين ورد ذكرهم فى الميثاق ، الى جانب سعد زغلول ومحمد عبده ومصطفى كامل وقاسم أمين . ونحن منذ بعيد متشوقون الى أن نعرف حياة هذا الرجل ، ولست اعرف كتابا اختص بلطفى السيد ، الى جانب هذا الكتاب سوى كتاب الدكتور عبد اللطيف حمزة الذى الفه قبل عشر سنوات ضمن سلسلة « أدب المقالة الصحفية » .

هذا عامل هام . والعامل الآخر أن صاحب الكتاب كانت تربطه بأستاذ الجيل روابط عديدة من القرابة والتلمذة ، وهو الى جانب هذا توفر على دراسة السياسة وبيان العوامل الخفية والظاهرة — فى تحركات التاريخ وتقلبات الأحوال والظروف ، وله كتاب جيد بعنوان « السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط » . وهو من الكتاب الذين عنوا بالأسلوب الجزل والعبارة المنيرة ، الى جانب الفكرة الواضحة والمعانى العميقة ، وهو عين اتجاه لطفى السيد .

والحديث عن الشخصية المصرية يشغل نصف صفحات الكتاب ، فهو يتناول هذه الشخصية بالتحليل والمناقشة ، ويستعرض لنا آراء لوبون وولز ورينان ، وكيف أن الشخصية المصرية لم تتغير خلال الأحقاب المتباعدة من التاريخ ، وان جرى لها تعديل فى ظاهرها وفى صورتها العامة . هذه الشخصية ابرز سماتها وحدة الشعور وعمق الأصالة الدينية ، ولكن هذا الرأى يؤدى بنا الى القول بثبات المميزات القومية national character وبقائها ، كما كان يرى لطفى السيد ، وقد وضحه الأستاذ العقاد فى كتابه عن « سعد زغلول » . بيد أنه تبين بعد التطورات التى استجدت على العالم فى السنوات الأخيرة وبعد التقدم العلمى الهائل أن الصفات القومية تتغير فى الظاهر وفى المضمون معا ، رغم أن هذا التغير قد لا يكون ذا نسبة واحدة فى جميع الأحوال .

أما حديث المؤلف عن لطفى السيد وموقفه من الشخصية المصرية ، فقد خرج علينا بالمعالم الرئيسية لهذا الموضوع ، ولكنه أغفل عدة امور هى جديرة بالتسجيل فى كتاب يتحدث عن الشخصية المصرية وعن لطفى السيد . فنحن لا نعرف بالضبط ماذا كان موقف لطفى السيد من الحركة القومية العربية ، ومن التيارات الحديثة التى أتت بعد الحرب العالمية الأولى .

والذى ندريه جميعا أن لطفى السيد لم يكن راضيا عن فكرة الجامعة الاسلامية ، الا اذا كان فيها الخير لمصر وجاراتها (١) . ويبدو أنه كان ينظر الى الجامعة العربية نفس النظرة ، وقد كانت له مساجلات عدة مع فيلسوف القومية العربية أبى خلدون ساطع الحصرى (٢) . ونحن اذا راجعنا نظرية لطفى السيد فى الديموقراطية ، لعرفنا أنه كان يسلم للكثرة بحقها اذا لم تكن فى جانبه ، ولعل هذا كان السبب فى خروجه على سعد زغلول (٣) ، ولعله كان ايضا سببا فى رضائه عن فكرة الجامعة العربية فى آخر الأمر .

والمؤلف يشير الى دور طلعت حرب الكبير فى استقلال الاقتصاد المصرى ، حتى يكون ذلك وسيلة للاستقلال القومى الكامل . ولكنه لم ينتبه الى اهمية دور لطفى فى هذه الناحية ، فقد ابرز — بتفكيره المنطقى السليم — ان « الاستعمار فى نظر الدول المستعمرة على العموم وانكلترا على الخصوص غرضه الأول الكسب المالى » (٤) . ولهذا فهو قد دعا الى شراء أسهم من الدين المصرى بالمال الاحتياطى وتأليف النقابات الزراعية ، وانشاء بنك زراعى أهلى .

وبعض المؤرخين — ومن بينهم الدكتور محمد أنيس — يأخذون على لطفى السيد تغير موقفه بعد الثورة المصرية ١٩١٩ ، وقد كان واجبا على المؤلف أن يشرح لنا موقفه هذا ، ولماذا خرج على سعد زعيم الأمة ، وانضم الى عدلى رئيس الحكومة . الى جانب أنه تحرك بعض الشيء عن آرائه المتحررة التى طالعنا بها على صفحات الجريدة فى أوليات هذا القرن ... وماذا كان موقفه من الاشتراكية ؟؟ .

أما كتاب الأستاذ محمد على غريب ... فهو كتاب ذكريات ... ذكريات أب وابن ... ثم حفيد . عاصروا جميعا حقبة واسعة من تاريخنا الحديث تبدأ من تاريخ حفر قناة

(١) الجريدة : ٢ ديسمبر ١٩١٢ .
(٢) ابو خلدون ساطع الحصرى : آراء واحاديث فى القومية العربية ١٩٥١ .
(٣) العقاد : المجلة . عدد ٧٦ أبريل ١٩٦٣ .
(٤) الجريدة : ٢١ ديسمبر ١٩٠٩ .

السويس حتى بزوغ الفجر الجديد ... فجر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وجلاء المستعمرين عن ارض الوطن . ولا أدرى ماذا يكون الحكم الصحيح على هذا الكتاب ، انه ليس تاريخا ولا قصة ولا ترجمة لواحد من المشاهير ، ولكنه انطباعات ثلاثة أجيال بين دفتى كتاب .

والكتاب كان فى الأصل « اضمامة من الأوراق » على حد قول الأستاذ المؤلف ، دفعها اليه صديق يعرفه منذ ربع قرن . وهذا الصديق – كما يبدو من صفحات الكتاب – هو الحفيد محمد عبد البديع السهلى ، مشبوب الوطنية ، ولكنه كان ينظر اليها من وجهة نظر معينة ... وضيقة . وهذا سوف يطبع تلك الذكريات بطابع خاص ، قد يجعلنا نرمى الحفيد (الصديق) بأنه انحرف بعض الشىء فى حكمه على بعض رجالات العصر السابق للثورة المصرية ١٩٥٢ .

ومآخذنا على الكتاب تنحصر فى أمرين . الأول : يتصل بالمؤلف . والآخر يتصل بالصديق الذى أوحى الى المؤلف بأن يسطر هذا الكتاب . فالمؤلف يحدثنا مرتين عن عبد العال فهمى بوصفه واحدا من زعماء الحركة الوطنية قبل الاحتلال ، الى جانب شريف باشا والبارودى وعرابى ، ونحن لا نعرف واحدا من زعمائنا الوطنيين بهذا الاسم . وأحسب انه يقصد عبد العال حلمى أو على فهمى اللذين كانا يشكلان الى جانب أحمد عرابى ثالوث الحركة الوطنية ١٨٨١ – ١٨٨٢ . وقد يرجع هذا الخلط الى الصديق صاحب الأضمامة ، ولكن كيف فات صوابه على الأستاذ محمد على غريب ، وهو صحفى قديم ، وكان له نشاط أدبى وسياسى معروف ، والدكتور عبد اللطيف حمزة ، وهو أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة . وارى ان السبب فى هذا يرجع الى ان المؤلف لم يكن دقيقا فى كتابته ، لأن الكتاب لمحات من تاريخ مصر فى عهدها الماضى ، يجب أن تتناولها يد المؤلف بالحبك والتنسيق وبيان الصواب ، حتى تكون هذه اللمحات كتابا يخرج به على الناس .

ويبدو هذا أيضا فى حديث الجد عن « العريف » ، وهى تسمية حديثة لرتبة عسكرية لم نسمع بها فى القرن الماضى ... ومن الغريب ان المؤلف يجعل الرئيس الأمريكى ويلسون رئيسا لمؤتمر الصلح الذى انعقد فى باريس بعد الحرب العالمية الأولى ، على حين اننا من قراءة أى كتاب صغير تناول تاريخ هذه الفترة نعرف أن رئيس المؤتمر كان جورج كليمنصو نمر السياسة الفرنسية الشهير .

أما الصديق فنلمح فى روايته بعضا من التحامل (المرير) على نفر من زعماء الوطنية فى العهدالماضى ، نذكرهم دائما بالخير والاحسان . وهذا يبدو بوضوح فى حديث الابن عن الثورة المصرية ١٩١٩ ، فسعد زغلول فى نظره كان يقيم فى قصره المنيف «ويتمرغ علىالحرير والدمقس ، وعلى مرمى بصره لا يرى سوى حديقة قصره الغناء ، تتناجى فوق غصونها المورقة الطيور بأغاريدها الشجية لتحية صاحب هذا القصر السعيد » . وهو لم يكن لديه اى نبأ عن قيام الثورة فى مصر ، لم يكن يطيقها او يحبها ، وصحافته صحافة ماجنة . أما صحافة الحزب الوطنى الذى تغير وتبدل بعد سنة ١٩١٩ ، وصار ذيلا من ذيول القصر واداة من ادواته ، فهى الغاية فى فن التحرير ... الوطنى .

والذى اراه أن ذاكرة المؤلف ... او الصديق ضعيفة الى حد خطير ... لقد نسى أن سعد زغلول هو الذى ذهب الى دار الحماية يطلب الاستقلال ، ونفى مرتين وهو شيخ كبير ، اصطلحت عليه طائفة من الأمراض والعلل . ولم يتول الوزارة سوى مرة واحدة ، مكث خلالها شهورا قليلة ، وكان ذلك باجماع من الأمة ، وسقطت وزارته بسبب حادث السردار . وتقول الدراسات الحديثة أن هذا الحادث كان مدبرا من جهة المندوب السامى لاسقاط اول وزارة وطنية ، كانت موضع الرضاء الكامل من الشعب ورغما عن قصر عابدين وقصر الدوبارة . لقد نسى المؤلف كل هذا فى غمرة تحمسه لحزب بدأ وطنيا ، وانتهى نهاية لا تشرف ماضيه العظيم ... اذا كان المؤلف قد نسى كل هذا ، فانى أشير عليه بمراجعة الباب الثالث من الميثاق « وركب سعد زغلول قمة الموجة الثورية الجديدة ، يقود النضال الشعبى العنيد ، الذى وجهت اليه الضربات المتلاحقة اكثر من مائة عام متواصلة دون أن يستسلم او ينهزم » .

... ورغم كل هذا فالكتاب مجهود طيب به لمحات ساذجة ولكنها ذكية ، فيما عدا هذه السقطات التى كان على المؤلف ان يرتفع عنها فى عصر نقوم فيه حركتنا الوطنية تقويما نزيها لا تعصب فيه ولا تجامل ولا انحراف .

عبادة كحيلة

تعريفات

استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي العام

تأليف : الدكتور على ابراهيم حسن .
مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣ – ٢٠٣ صفحات
قطع كبير .
ث ٣٠ قرشا .

من بين التطورات التى جـدت فى دراسة التاريخ الاسلامى الوسيط ما جرى فى السنوات الأخيرة من اهتمام بدراسة الكتب القديمة والبحث فى نشأة التدوين التاريخى عند العرب ومناهج البحث فيه وبيان الاتجاهات التى سار فيها هؤلاء المؤرخون على تباين نزعاتهم الدينية وأهوائهم السياسية والشخصية وتراوح قدراتهم الذهنية فى مجالات البحث والتفكير .

ومن هـذه الكتب التى تمهد الطريق أمام الدارسين كتاب الأستاذ على أدهم بعنوان « بعض مؤرخى الاسلام » وكتاب الدكتور حسين نصار بعنوان « نشأة التدوين التاريخى عند العرب » ثم الكتاب الذى نحن بصدده الآن .

والأستاذ المؤلف له عهد طويل بدراسة التاريخ الاسلامى وله كتب كما ان له أبحاثا متعددة فيه .

يبدأ الكتاب بمقدمة يسيرة فى التاريخ الاسلامى العام وفى التاريخ المصرى الوسيط ثم يستطرد بنا فيتحدث عن طرق البحث فى هذا التاريخ وتناول المصادر الأساسية التى يعول عليها مثل أوراق البردى والكتابات الأثرية الى جانب كتب التاريخ والجغرافية والأدب .

ووجه الفائدة من الكتاب يرجع الى أنه من الكتب القليلة فى موضوعها هذا الى أن المؤلف قد عرض لنا عرضا طيبا المصادر الهامة فى دراسة التاريخ الاسلامى . بيد أنه لم يتعرض لهذه الكتب بالنقد والتحليل ومعرفة الاتجاهات السياسية والدينية لهؤلاء المؤرخين ، والأهواء التى قد تنحرف بهم عن الأمانة المطلوبة حتى يكون هذا عونا للباحث الجاد .

والمؤلف فى عرضه لكتاب الأغانى – وهو أكبر موسوعة أدبية وتاريخية فى الاسلام – يذكر أن جمال الدين بن منظور – صاحب لسان العرب – قد اختصر هـذا الكتاب فى ثلاثة مجلدات كبيرة الموجود منها الثانى فقط وهو مخطوط بدار الكتب وقد كان أجدر بالمؤلف أن يذكر أن هـذا الكتاب سبق له أن طبع قبل ثلاثين عاما وذلك فى المكتبة المحمودية التجارية بالقاهرة وهى طبعة جيدة كان يجب أن تسجل فى كتاب يبحث فى مصادر التاريخ الاسلامى .

والى جانب هذا توجد بالكتاب (كلمات أعوزتها الدقة فى الترجمة) مثل تعريب المؤلف لموسوعة فان برشم المعروفة corpus Inscriptionum Arabicarum صح أن نقول « جامع أو موسوعة النقوش العربية » وليس « جامع الكتابات التاريخية » كما يتضح من الكتاب . وهو يطلق على كتب التاريخ التى تناولته سنة فسنة اسم السنويات على حين أن الاسم الشائع والمتداول لدى المؤرخين هو الحوليات .

الى جانب هذا فان المؤلف فى الباب الخاص بمصادر الأقدمين المخطوطة والمنشورة لم يلبث أن عرض لكتب كاترمير ونيكلسون وفييت وميور وارنولد وحسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن وغيرهم . وكم كنا نود أن يورد المؤلف ثبتا يكون أوسع بالنسبة للمؤرخين الأجانب والعرب على السواء .

ملامح الحضارة العربية الإسلامية

بقلم : فرنشيسكو جبريلي

ترجمة : محمد حسن خلاف

القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٣

الاستاذ جبريلي مستشرق ايطالي كبير له دراسات وأبحاث مستفيضة عن الحضارة الاسلامية ، وهو فى هذا الكتاب يتخذ نهج برنارد لويس فى كتابه المعروف « العرب فى التاريخ » . فعرض لعصر ما قبل الاسلام ، ثم تتبع تاريخ العرب خلال العصور الاسلامية حتى العصر الحديث فى أسلوب سهل ميسر .

غير أن فى الكتاب من نقاط الضعف ما يرجع الى المترجم وقد يرجع الى المؤلف ، فالترجمة فى بعض أجزائها سقيمة كأن يقول المترجم « ولكن قوة العنصر التركى ظهرت واضحة عن طريق الجنود المرتزقة من الأتراك الذين كانوا حراسا للخليفة ، واحتلوا مكان الفرس ، وفى سنة ٨٦١ قتل المتوكل عن طريقهم » . ومن الأخطاء الأخرى أنه ترجم Brussa — وهى مدينة كانت تتبع الدولة العثمانية ويسميها الأتراك بورصة — ترجمها على أنها بروسيا وهذا خطأ شنيع . وكذلك حين يقول « بربر المغول » فى حين أن الترجمة الأمينة لها المتوحشون أو الهمج . وكلامه عن معركة أنقرة سنة ١٤٠٢ يبدو منه أن العثمانيين انتصروا فيها على البيزنطيين ، والحقيقة أن العثمانيين منوا فيها بالهزيمة على يد تيمورلنك الفاتح المغولى الكبير .

هذا .. ومن بين الأغلاط التاريخية الأخرى التى تنسب الى المؤلف ، أو قد ترجع — كما أسلفنا — الى عدم دقة الترجمة ما يأتى « وفى خلال القرون الخمسة الأولى التى عاشتها الخلافة العباسية ، نجد أن هذه الفترة هى العصر الذهبى للحضارة والثقافة الاسلامية التى تتفق خطوطها مع الازدهار السياسى للعروبة والخلافة وخاصة فى العصر العباسى » .

... ولم يقل أحد ان العرب كان لهم التفوق السياسى خلال عصور الخلافة العباسية ولربما كان لهم هذا التفوق بالنسبة لعصرها الأول الى جانب الفرس ، ولكنه لم يكن كذلك فى جميع عصورها .

ومن الأغلاط الأخرى ما كتبه المؤلف « وقامت الحرب الصليبية الثالثة فوقعت اذ ذاك أقوى معارك الكفاح ، فقد واجه بطل الاسلام والمسلمين صلاح الدين القوى الأوروبية كلها ، وعلى رأسهم ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيلب أغسطس ملك فرنسا ، فضلا عن ملوك الصليبيين أنفسهم ، واستطاع صلاح الدين البطل أن ينتصر عليهم فى موقعة حطين » . والحقيقة أن موقعة حطين لم تأت خلال الحملة الصليبية الثالثة أو بعدها ، وانما أتت قبلها وبالتحديد فى سنة ١١٨٧ ، على حين أن الحملة لم تبدأ الا فى سنة ١١٨٩ .

وأخيرا .. فان الكتاب يبدو من عنوانه انه يتناول الحضارة العربية الاسلامية ، ولكن المؤلف لم يلبث أن جعل جل همه فى التاريخ السياسى ، وأغفل اغفالا يكاد يكون تاما الحضارة الإسلاميه . ومهما يكن من أمر فالكتاب مجهود طيب لمؤلفه ، وكان أجدر أن يترجم ترجمة أمينة دقيقة لا يسودها طابع العجلة والارتجال .

سويسرا .. شعبها وأرضها

ترجمة : كمال الملاخ

تأليف : ليليان براجدون

تقديم : الدكتور عز الدين فريد

الناشر : دار النهضة العربية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين — ١٩٦٤ — ١٥٥ صفحة .

هذا عمل علمى وأدبى ممتاز من ابداع كاتبة سويسرية الأصل أمريكية الوطن والنشأة .

تناولت فيه بأسلوب شائق سويسرا ـ شعبها وأرضها ـ وسرحت بنا عبر التاريخ تستمد لمعا من أخبار هذا البلد العريق فى الحرية والديمقراطية .. والجمال . ولا تشعر وأنت تقرأ هذا الكتاب أنه غريب عن الذوق العربى وديباجته الأدبية ، وذلك بفضل المجهود الطيب الذى بذله الأستاذ كمال الملاخ ، وبفضل المقدمة الحسنة للدكتور عز الدين فريد .

والكتاب ليس مجرد لمحات خاطفة يطغى عليها الأسلوب الصحفى المرح ، كعهدنا بكتب جون جنتر وانيس منصور ، وانما هو وسط بين هذا وبين كتب الرحالة العربى الكبير محمد ثابت . فهو دراسة علمية أدبية تاريخيه تنتقل بك فى رحلة عبر الزمان والمكان الى حيث الوداعة والطمأنينة والجمال .

وسويسرة ـ كما يتضح من الكتاب ـ جمهورية تتألف من اثنتين وعشرين مقاطعة Canton ، لكل منها استقلالها الذاتى الذى يماثل من نواح عديدة الاستقلال الذى تتمتع به كل ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية ، فى حين أن مساحة سويسرة بأكملها اقل بكثير من مساحة بعض ولايات أمريكا . والأغرب من هذا أنه طالما نشبت حروب عديدة بين هذه المقاطعات وبعضها البعض « ولكن هذا ـ عندما يحدث ـ كان يتخذ طابعا محليا داخليا كالخلاف الذى قد ينشأ بين أفراد الأسرة الواحدة ، أو بين الأخ وأخيه ، فاذا ما لاح عدو مشترك دفنت الأحقاد واجتمعت الكلمة ، وهب الجميع كرجل واحد فى وجه الخطر الذى يتهددهم . فلا مجال لخائن أو عميل ، ولا هدف سوى المحافظة على الحرية والاستقلال » .

ومن الغريب أيضا أن كثرة أهل سويسرة ـ ويسكنون ست عشرة مقاطعة ـ يرجعون فى أصلهم الى الشعب الألمانى . ومع هذا فانهم عاشوا مع اخوانهم من الذين يتكلمون الفرنسية أو الايطالية فى دعة ومحبة وتواد ، على الرغم من العداء الذى استمر أحقابا عديدة بين اللاتين والجرمان ، وعلى الرغم من انقسام شعبها بين كنيسة روما وكنيسة أهل الشمال .

وثمة صفة أساسية يتسم بها السويسريون ، وتميزهم عن شعوب العالم كافة ، وهى ميلهم الى السلام ومحافظتهم عليه ما استطاعوا . ومن أجل هذا كان حياد سويسرة أمرا معترفا به منذ سنة ١٨١٥ ، كما أن دستورها من أقدم دساتير أوربا ولم يحصل له تعديل منذ سنة ١٨٧٤ . ولم تشارك سويسرة فى أى تكتلات سياسية ، أو أحلاف عسكرية قد تحيد بها عن طريق السلام . وهى لم تشارك أيضا ـ وهى مصنع السلام ـ فى هيئة الأمم المتحدة ، حتى لا تزج بنفسها فى خضم السياسة الدولية ومشاكلها المعقدة . وان لم يمنعها ذلك من أن تكون عضوا فى المنظمات ذات الصفة الانسانية والتى تتبع الهيئة ، مثل منظمة الصحة العالمية ومنظمة اليونسكو .

بيد انه ليس بغريب أن تسود الروح العسكرية بين السويسريين ، فالمواطن مستعد دائما لأداء واجبه الوطنى حتى سن الستين ، ولا شك أن تلك الروح العظيمة موجودة لدى السويسريين منذ وليم تل بطل ملحمة شيلر الشهير . ويحكى أن هتلر ـ عندما كان فى أوج سطوته وغروره ـ فكر فى أن يجتاح بجنود العاصفة تلك البلاد المنيعة ، ولكنه عدل عن ذلك حتى لا يفقد نصف مليون من خيرة جنوده فى مغامرة غير مأمونة العواقب .

ومن قديم كانت سويسرة ملجأ وملاذا للأحرار من كل مكان ففى جنيف ولد الفيلسوف الانسان جان جاك روسو الذى دعا الى الحرية والاخاء والمساواة ، قبل أن تصبح تلك المبادىء حقيقة واقعة فى حروب الثورة الفرنسية . كما أن دعاة الاصلاح الدينى ـ مثل أرارنوس وكلفن وتسفنجلى ـ وجدوا فيها المعقل الأمين والاتباع المخلصين . وقد ساعد كل هذا على ارتقاء البلاد فى مناحى العلم والمعرفة ، وليس أدل على ذلك من أن الفضل فى ازدهار صناعة الساعات

فى سويسرة يرجع الى الهجونوت الفرنسيين الذين هاجروا الى هناك فى عهد لويس الرابع عشر ملك فرنسا .

والسويسريون قوم حريصون على المبادىء ، لا يتخلون عنها رغما عن العواصف والأنواء ، وقد هلك الحرس السويسرى وهو يدافع عن لويس السادس عشر بازاء الرعاع والغوغاء من اهل باريس ، ولهذا كان السويسريون هم الجنود الأثيرون لدى بابوات روما حتى وقتنا هذا .

وهم ايضا قوم عاطفيون بطبيعتهم وتشملهم روح المحبة للشعوب كافة وعلى هذا كان جان هنرى رونانت هو صاحب فكرة الصليب الأحمر بعد ما رأى من فظائع حرب التحرير الايطالية ، وبفضله انعقد أول مؤتمر دولى للصليب الأحمر فى جنيف سنة ١٨٦٤ ، ولا تزال هذه المدينة مستقره الدائم حتى اليوم ، الى جانب كونها مستقرا للهيئات والمؤتمرات الدولية التى تعنى بشئون السلام ، وبخاصة عصبة الأمم التى انهارت فى مستهل الحرب العالمية الأخيرة .

جملة القول أن هذا كتاب ممتاز ، يضم بين دفتيه ما يجب أن يعرفه القارىء عن سويسرة – جنة أوربا – وقد وفقت الكاتبه حين طعمت الكتاب بزبدة من الصور البديعة هى ترجمان صادق لسويسرا وتعبير امين عنها .

فلسطين والضمير الإنسانى

بقلم : محمد على علوبة

تقديم : طاهر الطناحى

القاهرة : دار الهلال ١٩٦٤ – ٢٢٥ صفحة – ١٠ قروش .

الأستاذ محمد على علوبة واحد من رجالات الحركة الوطنية فى مصر منذ أن بدأت فى أوليات هذا القرن ، فقد كان أحد أعمدة الحزب الوطنى ابان زعامة مصطفى كامل ومحمد فريد ، ثم شارك فى الوفد المصرى الذى شكل بزعامة سعد زغلول من اجل الحصول على استقلال مصر استقلالا تاما . وبعد ذلك انضم الى حزب الأحرار الدستوريين فى جملة أعضاء الوفد الذين خرجوا على زعيمه . وآثر أخيرا ان يستقل عن الاحزاب السياسية وتشعب أهوائها ومسالكها حتى توفاه الله فى سنة ١٩٥٦ .

وعلى هذا فقد كان الأستاذ محمد على علوبه رائدا من رواد الاصلاح والمطالبة بالاستقلال .. ولكن الغريب فى هذا الكتاب الذى نحن بصدده ان الأستاذ المؤلف كان فى طليعة المصريين الذين انتبهوا الى عروبة مصر فى عصر كان الشغل الشاغل للساسة هو العلاقة بين مصر والدولة المستعمرة الغاصبة . وفى سنة ١٩٣٠ كان الأستاذ علوبة أحد من أسهموا فى الدفاع عن العرب فى قضية حائط البراق المشهورة حتى كلل مسعاه بالنجاح .

وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب قبل وفاة الأستاذ المؤلف وحاز الرضا من السيد رئيس الجمهورية وكم كان توفيقا من دار الهلال ان تتولى اعادة طبع الكتاب فى ظروف نحن أحوج فيها الى أن نعرف كل شىء عن القضية الفلسطينية .

ويبدأ المؤلف كتابه بالحديث عن تاريخ اليهود فى فلسطين ويفند حقوقهم المزيفة فى أرض الميعاد . ومأساة فلسطين وكيف بدأت . وخرافة الشعب المختار وأساليبه فى استدرار دموع العالم وأطماع الصهيونية التوسعية من الفرات الى النيل .

وفى الكتاب بعض الحقائق التى لا يزال يجهلها كثير من المثقفين من العرب والأجانب ، اظهرها المحاولات التى بذلها اليهود منذ بعيد لافساد الاسلام والمسيحية على السواء فى شكل الماسونية والدعوات الشيوعية وأندية الروتارى

كما تحدث المؤلف عن الموقف الذى اتخذته الدول الكبرى من المسألة الفلسطينية ، وعن تنكر هذه الدول للوعود التى بذلتها للعرب والمتمثلة فى مراسلات الحسين – مكماهون . وعن وعد بلفور الذى حاز الرضاء الكامل من الرئيس ويلسون صاحب النقاط الاربع عشرة المعروفة والتى تنكر هو نفسه لها . كما لم يغفل المؤلف أن يتناول بالتحليل أسباب النكبة ومنها الموقف الذى اتخذته بعض الحكومات العربية من القضية الفلسطينية وكان مغايرا لآمال شعوب هذه الحكومات .

وفى الأجزاء الأخيرة من الكتاب يتكلم المؤلف عن الوسائل الناجعة لمواجهة اسرائيل ، وعنده أن الحصار الاقتصادى هو أهم وسيلة يجب ان تتخذها الحكومات العربية فى هذا الصدد . لأن الأساس فى وجود اسرائيل هو المعونات التى تحصل عليها من الدول الغربية ، والعلاقات الاقتصادية التى تربطها بالبلاد الأخرى .

والكتاب – الى هذا – يحوى بحثا عن الديموقراطية والاسلام استطاع فيه المؤلف ان يبرهن على أن مبادىء الحرية والمثل الديموقراطية ذات جذور عريقة لدى العرب والمسلمين .

جوائز الأدب العالمية
(مثل من جائزة نوبل)

تأليف : عباس محمود العقاد

الناشر : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر – ١٩٦٤ – عدد الصفحات – ١٢٨ .

من أبرز الجوائز العالمية التى تمنح بين حين وحين للصفوة من الأدباء والعلماء ، ودعاة السلام من الساسة والزعماء ، تلك الجائزة التى هى موضوع الكتاب الأخير للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد . .

والحديث عن جائزة نوبل حديث طويل ، يؤدينا الى الخوض فى مدى أحقية كل كاتب وزعيم نال هذه الجائزة لهذه الجائزة ، مع الاشارة الى هؤلاء الذين يرتفعون عن المستوى العام لها ولم ينالوها معجدارتهم واستحقاقهم .

وأبرز ما فى هذا الكتاب الصغير أمران . الأول : ان صاحبه أديب عربى كبير ومفكر عملاق ، اجدر بالجائزة التى تحدث عنها من آخرين غيره لم يصلوا الى درجة من العظمه التى ارتفع هو اليها . والثانى : ان الكتاب بعض من حصيلة اطلاع الأستاذ العقاد على عيون الأدب الغربى وفحول الشعراء والمفكرين الذين عظم شأنهم وطار ذكرهم ، فتهيأ له أن يحكم الحكم الصائب عن جدارة من استحقوا الجائزة ، ومن كانوا أهلا لها ولم تكن من نصيبهم .

وقد تضمن رأى الأستاذ العقاد فى جائزة نوبل فى الفقرة الآتية « ان لجنة نوبل ليست بالمعصومة من عوارض المحاباة والخطأ ، ولا من النقص فى معايير النقد والتمييز ، ولكنه حكم لا تنفرد به اللجنة السويدية وحدها ولا تسلم منه ، على عمومه جماعة من بنى الانسان فى كل زمان ومكان » . وقد شرح الأستاذ العقاد هذا فى الفصل الأخير من الكتاب ، ورده الى عوامل عدة . أولها : ان لجنة الجائزة تنظر فى أعمال المؤلفين خلال سنوات متوالية فى أمم مختلفة ، وقد يستحقها فى هذه السنة من هو اقل استحقاقا لها قبل عشر سنوات . والثانى : لأن المحكمين يتغيرون وتتغيرالأذواق والمقاييس معهم بين حقبة وحقبة ،وبين مدرسة ومدرسة من مدارس النقد والتفكير . والثالث : لأن اللجنة مضطرة الى اجتناب الشبهات والحذر من تمييز أمة واحدة بين الأمم بنصيب من الجوائز ، يزيد على نصيب غيرها عند المقارنة العامة . والرابع : ما يعرض من ازمات سياسية وحروب ، فلا يسع اللجنة الأدبية أن تحكم لأديب مستحق للجائزة ،

يعتبر الحكم له حكما لأمته أو لقضية بلده فى معركة الخصومات الدولية . والخامس : وهو يهمنا نحن العرب ويختص بغلبة النفوذ اليهودى على معاملات السويد الدولية ، لأنها أمة كثيرة العلاقات بالتجارة الخارجية ، ومبادلات العملة على الخصوص .

بيد ان من أسباب التفاوت فى التقدير ما يتصل بالتغيير الذى طرأ على المثل الأعلى فى القرن العشرين ، وتضاؤل النظرة الدينية اليه « بعد أن هبط السوبرمان الذى نادى به نيتشه من الآفاق العلوية حيث كان يعيش ، وغلبت عقيدة الواقع المادى على نفوس الناس « ثم أصبح قصارى الأمل فى مصير الانسان أن يروض نفسه على مواجهة اليأس والتسليم بضرورة الوجود : تسليم قوامه الضرورة المقضية ، ولا قوام له من الرجاء فيما وراء العيان ، ولا فى نحلة البطولة أو نحلة السوبرمان ... وكان آخر ذوى الأفكار من مستحقى الجائزة أديبا يتكلم بلغة الفلسفة ، كأنه السياسى الذى يتكلم بلغة « الدبلوماسية » حين يقول « اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون » ... وهكذا انتهى المطاف برسالة نوبل فى طلاب المثل الأعلى ، ولا نخاله مرتفعا الى قمة تعلو على هذه القمة » الى مدى سنوات مقبلات » .

وحديث الأستاذ العقاد عن المثل الأعلى يضطرنا الى الحديث عن مدى الثبات من ناحية ودرجة التغير التى تطرأ عليه بين حين وحين من ناحية أخرى . والذى أعتقده ان المثل الأعلى قضية تشتبه من نواح متعددة قضية المميزات القومية فى الأمم National character ، فموقف الأستاذ العقاد من المثل الأعلى واضح فى هذا الكتاب ، وموقفه من المميزات القومية ردده فى بعض كتبه وأحاديثه ، وبخاصة فى كتابه الضخم عن الزعيم الخالد « سعد زغلول » . وهو يرى أن المميزات القومية ثابتة وجوهرها لا يتغير ، والواقع أننا اذا سلمنا بهذا المفهوم ، فان المثل الأعلى يكون أكثر ثبوتا من المميزات القومية على خلاف ما يظهر من كتاب العقاد الأخير .

... والكتاب — عدا هذا — عمل ممتاز لعملاق الفكر العربى ، يتناول فيه جائزة نوبل وسيرة صاحبها الذى كان يملك مصانع تنتج أسلحة الحرب والدمار ، ثم آمن بالسلام وعمل على أن يسود بين بنى الانسان على اختلاف شعوبهم وأوطانهم » فاشتملت وصيته على خمسة أنواع من الجوائز وهى جائزة علم الطبيعة ، وجائزة علم الكيمياء ، وجائزة الطب والتشريح ، وجائزة السلام ، وجائزة الأدب . والجائزة الأخيرة هى موضوع كتاب الأستاذ العقاد الذى كان فى الأصل مجموعة من الأحاديث الاذاعية للكاتب الكبير ، تفضل فطلع بها علينا فى هذا الكتاب . ومن هذا يبدو أن الكتب الأخيرة التى صدرت للأستاذ العقاد تحمل طابع الخبرة الشخصية مثل رجال عرفتهم واليوميات وجوائز الأدب العالمية . وهذا لا يكون الا من أديب كبير ملأ الأدب العربى علما فاراد أن يملاه ثقافة ... وقد كان .